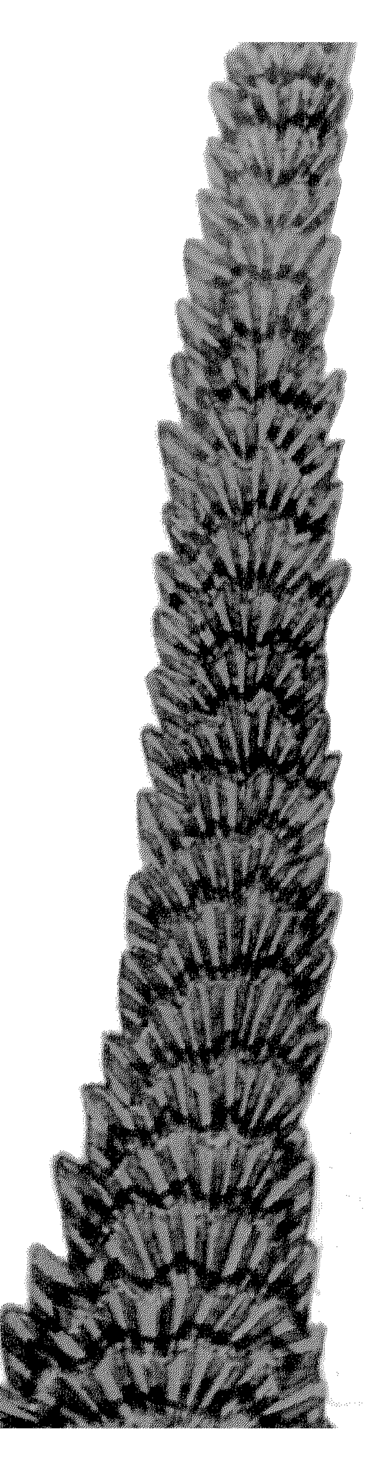




بهاء طاهر



دار المستقبل العربي

اهداءات ٢٠٠٢

السيدة/ نهى حقى

القاهرة


شرق النخيل
لو نموت معا...!

صمم الغلاف الفنان : ايهاب شاكر

شـــرق النخـــل

(لو نموت معا)

قصـــة طويلـــة

بهـــاء طاهـــر



دار المستقبل العربي

للنشـــر والتوزيـــع

١٩٨٥

« الإهـــداء »

(إلى ذكرى أمي الغالية)
رحمها الله







٢

ذهبت الى الكلية قرب الظهر واستلمت الخطاب المنتظر ورحت أقرأه وأنا أسير فى الشمس . كانت الرسالة موجزة ومباشرة . فبعد « ابننا العزيز أبقاه الله » قال أبى انه رأى منى ما فيه الكفاية وأنه لا تنقصه الهموم . وقال انه عندما كان يدرس فى الأزهر كان يعيش على جنيهين فى الشهر وهو مندهش كيف لا أكتفى أنا بعشرين جنيها كاملة . ثم انه يبكى الآن بدل الدموع دما لانه اضطر الى قطع دراسته فى الأزهر والعودة للبلد رغم انه كان مضطراً لذلك بعد موت أبيه . ولكن ما عذرى أنا فى خيبتى ؟ .. يجب أن أنسى مسألة طلب النقود فى نصف الشهر بعد الآن لأنه فى المرة القادمة لن يكلف نفسه مجرد الرد على . ويجب أن ألتفت الى دروسى . أما ان كنت أفكر فى الرسوب مرة أخرى هذه السنة فيجب أن أصارحه بذلك لينصحنى بالعودة فورا الى الصعيد . وفى هذه الحالة سيرضى أن يربى فى البيت ثلاث بنات بدلا من بنتين ما دامت هذه قسمته وأمر الله . وفى ظهر الخطاب ملحوظة بأن أمى سوف تبعث لى برداء جديد من الصوف وتحذرنى

من برد مصر . وكانت الملحوظة بخط أختى فريدة الكبير المتعرج كخط الأطفال .

طويت الخطاب وجلست على الحشائش الرطبة وراء المكتبة وأمامى قبة الجامعة تلمع تحت الشمس مثل كأس خراف مقلوب .أمسكت القلم وأسندت الكراس على ركبتى وأجهدت ذهنى لكننى لم أستطع أن أكتب شيئا بعد (والدى المحترم حفظه الله) ثم رحت أنظر الى أحواض الزهور عن يمينى حيث تموت زهور حمراء وزرقاء باهتة تحيط بها أسلاك شائكة علاها الصدأ وتقوست فى وسطها حتى لامست الأرض .

قلبت الصفحة وكتبت (حبيبتى فريدة تحية وأشواقا وبعد ...) .

فى الصيف الماضى عندما دخلت وخطاب سمير فى يدى كانت الشمس تملأ صحن البيت وقد انزوى الجميع فى بقعة الظل الصغيرة خلف المدخل . أمى وفريدة وفاطمة بثيابهن السوداء والكلب الأبيض المترب الذى فتح فمه وأخرج لسانه بأكمله من بين أسنانه وراح يتطلع الى . لوحت لفريدة بالخطاب فجرت نحوى همست فى أذنها (زغردى) ــ فصاحت نجحت ؟ ... قلت زغردى بصوت عال . مدت يدها تحاول أن تخطف الخطاب من يدى المرفوعة وهى تثب وتضحك ثم سكتت عندما ظهر أبى من داخل البيت بجلبابه الأبيض الطويل وسبحته فى يده . قال وهو يبتسم نجحت ؟.فضحكت . أعاد سؤاله غاضبا وهو يخمن اجابتى فقلت وأنا أضحك لا . قال ولماذا تضحك يا كلب ؟ ما الذى يضحكك ؟ وعندما بدأت أمى فى البكاء صرخ فيها اخرسى يا امرأة . ثم اختفى داخل البيت وهو يشتم ، وتعلقت فريدة برقبتى والدموع تنزل سريعة وغزيرة من عينيها السوداوين الجميلتين وهى تهمس . لا تضحك . لماذا تكذب على يا أخى ؟ لماذا ؟ لا تحزن . لماذا تضحك ؟ لماذا ؟

ــ كنت أعلم أنى سأجدك هنا . خلف المكتبة وتحت النخلة .

طويت الكراس وأنا أقول ــ أهلا ليلى .

كنت أعرف أن هذا الخطاب الى فريدة لن يكتب على أى حال . طالما فكرت فيه لكننى لم أكتبه أبداً .

نظرت الى ليلى . كانت هى أيضا تتطلع الى بعينيها الخضراوين من خلف نظارتها . نفس النظرة الثابتة الهادئة التى طالما أحببتها . ولكن لم يبق فى الوجه الجميل مرح .

قالت ــ فى الصباح سألت عنك سمير فقال انه لم يرك منذ مدة . كيف وأنتما تسكنان معاً ؟

كانت تقف وهى تضم كتبها الى صدرها بيديها معا فقلت لها ــ تختلف مواعيدنا . لم لا تجلسين ؟

ألقت بالكتب على الحشائش ثم جلست بجوارى وقد ثنت ساقيها تحتها وراحت تفرد الجونلة لتغطى ركبتيها وهى تقول :

ــ ما دمت قد جئت أخيرا الى الكلية فلماذا لم تأت الى المدرج ؟

ــ جئت من ربع ساعة فقط . ولكن الجامعة تكاد تكون خالية على أى حال . ما الذى حدث ؟

قالت ــ صح النوم . ألا تعلم ان هناك اضرابا ومظاهرات ؟ لم يبق فى الجامعة سوى « الطلبة الجبناء » كما يقول زملاؤنا المضربون . ألم تسمع عن ذلك ؟

ــ لا ، وما السبب ؟

قالت وهى تتحاشى النظر فى وجهى ــ أبدا ، احتل اليهود سيناء من حوالى أربع أو خمس سنين كما تعلم .

سكت فتطلعت الى مرة أخرى وقالت ــ من أسبوعين لم نرك فى الكلية . وبالمناسبة هناك خطاب مسجل لك منذ أمس .

ـــ شكراً . استلمته وقرأته . خطاب من أبى ليس فيه ما يسر .

قالت وهى تنظر للحشائش هذه المرة .

ـــ كنت آتى هنا فى الأيام الماضية . وسألت عنك سمير أكثر من مرة .

ـــ نعم . قال لى . وأشكرك يا ليلى .

نظرت الى نظرة سريعة وقالت وهى تضحك ـــ ما الحكاية ؟ شكرتنى حتى الآن مرتين .

ضحكت أنا ايضا وقلت ـــ ألا يسرك هذا ؟ عندما عرفتك كنت تلومينني لأننى لم أكن أقول للناس شكراً أو من فضلك . الآن أصبحت مهذباً .

مدت أصبعها فى وجهى وهى تقول ـــ انتبه . أنت الذى بدأت الآن تقول كنت وكنا . أفهمتنى كثيرا أنك لا تريد ذلك . أفهمتنى أن هذا هو سبب كل شجار بيننا .

ـــ نعم ، لكننا لن نتشاجر اليوم . فأنت لطيفة جدا وأنا متعب جدا .

ضحكت ضحكة قصيرة وهى تقول ـــ لا يمنع هذا . لا يمنع أبدا . ولكن لماذا أنت متعب ؟

ـــ لا أدرى . لعلها مقدمات برد .

ـــ أعرف سببا آخر . سمير يقول لى .

ـــ لا تصدقيه .

ـــ وجهك أيضا يقول .

انتزعت قبضة من الحشائش وقلت . نعم . نعم . أنت تعرفين كل شيء ، فلم السؤال ؟ وكيف حال أبنائنا الطلبة ؟

ــ ومن تعرف منهم ؟؟

ــ لا أحد فى الحقيقة . لا أحد . كل الذين كنت أعرفهم تخرجوا . بقيت واحدة فى الليسانس سوف تتخرج هذا العام وسأبقى أنا . مؤرخ الدفعات فى قسم اللغة الانجليزية بكلية الآداب .

ــ بإرادتك . تستطيع أن تنجح لو أردت . ما هى يعنى المعضلة فى السنة الثالثة ؟ .. لو أنك ذاكرت بدلا من ..

ــ أرجوك يا ليلى . لا تبدئى هذا التعذيب . نعم . نعم أنت تعرفين كل شيء وسمير يقول لك ووجهى يقول لك . أنا سكير . أشرب كل ليلة . أفكر أيضا فى ادمان المخدرات لو أمكن . ماذا تتوقعين من طالب فاشل فى السادسة والعشرين من عمره ؟

سكت حين راحت ساعة الجامعة تطن الى ما لا نهاية وعندما كف الطنين أخيرا ترك وراءه صمتا مشبوها مشحونا بالصدى . وكانت ليلى قد أحنت رأسها وراحت هى أيضا تنتزع قبضة من الحشائش ثم رفعت رأسها وقالت بهدوء ــ لن تسكتنى بهذه الطريقة . نعم . أنا أعرف أنك تشرب كل ليلة . فكرت كثيرا وعندى رأى . لا . لن أنصحك أن تكف عن الشرب . ولكن أنت الآن لا تفعل شيئا أبدا . لا تأتى الى الكلية ولا تقرأ كما كنت تفعل من قبل . ان كنت لا تريد حضور المحاضرات فلا تفعل ذلك الآن . ولكن تستطيع على الأقل أن تأتى الى الكلية وأن تقرأ كما كنت تفعل منذ عامين . منذ ثلاثة أعوام ربما ؟ .. لا أذكر . ولكن أرجوك أن تكف عن الضحك . هل هى فكرة سخيفة ؟ هل تسخر منى ؟

ــ أبدا . ولكن أنا نفسى فكرت فى ذلك . وحين كنت أمسك كتابا لأقرأه كان عقلى يفكر فى ألف شيء وشيء عدا الكلمات التى أقرأها .

ــ فكرت كثيرا . قل لى ماذا أفعل . قل لى ...

حولت رأسها نحو أحواض الزهور وكان صوتها مختنقا وقالت بسرعة وعصبية .

ــ لم هذه الأزهار ميتة ؟ لماذا هى ميتة دائما ؟ ألا يسقونها أبداً ؟

وما هذه الدموع الآن ؟

قلت لى اننا سنصبح صديقين . قلت لى ان ما بيننا ليس حبا فلنصبح صديقين ورضيت .

ــ نعم . ألسنا الآن صديقين ؟

ــ لا . ولكن تكلم من فضلك . اسألنى لماذا لا أتركك . لماذا لا أفعل هذا وأنا أعرف أنك تريده فينتهى كل شىء . اسألنى فأنا أسأل نفسى فى كل ساعة . كل ليلة . فى كل ليلة أتخذ قرارا ولكننى فى الصباح أسأل عنك سمير . قل لى ماذا أفعل ؟

ــ أنا لا أستحق أن تهتمى بى . يجب أن تقتنعى بذلك يا ليلى . أنا لا أستحق أن يهتم بى إنسان .

ــ ولكن لماذا ؟ لماذا ؟ كنت شيئا آخر فما الذى حدث ؟ كنت تقرأ . كنت ترغمنى على أن أقرأ الكتب التى تحبها حتى صرت الآن لا استطيع الحياة بدون القراءة والآن أنت نفسك لا تقرأ . لماذا ؟

كفى يا ليلى . أخجل من نفسى حين تقولين هذا . أخجل من نفسى بمجرد أن أراك . قلت لك أنا لا أستحق اهتمامك .

ــ وما فائدة هذا الكلام ؟ ليته كان يفيد . قل لى ما الذى سيحدث لنا ؟

ــ فى هذا العام سوف تتخرجين . سوف تعيشين حياتك ، وسوف تنسيننى .

ــ ولماذا لم أنسك فى أربع سنين ؟ ولماذا لا تتغير أنت ؟ ولماذا تغيرت أصلا ؟ وما الذى حدث ؟ لو أعرف .. لو أعرف أنك تحب أخرى فأقسم .. لا . لا

أقسم . أعرف على الأقل أننى كنت سأتجنبك . ولكن الآن ، كصديق ما دمت تريدنا كذلك بم تنصحنى أرجوك ؟ أتنصحنى أنا أيضا أن أشرب ؟ أنا لا أضحك . هل يفيد هذا ؟ قل لى أرجوك ماذا أفعل ؟

ــ لا أعرف يا ليلى . ليتنى أستطيع أن أنصح نفسى .

قالت ــ طيب . والآن كالمرة السابقة . كالمرة التى قبلها . وككل مرة . لا تريد أن تتكلم والذنب ذنبي وحدى .

قامت وراحت تنفض عن ثوبها الحشائش الجافة ثم انحنت تلتقط كتبها وتقول وهى تحاول أن تضحك .

ــ سأذهب الى المحاضرة . سأذهب الى زملائى من الطلبة الجبناء كما يقول من يهتفون فى الاضرابات .

عندما استدارت لتنصرف ناديتها :

ــ ليلى . اسمعى . أنا كنت دائما .. أقصد أنت كنت دائما ، ولكن لا . لا داعى لأى كلام . فقط أرجوك أن تسامحينى . فأنت تسامحين دائماً .

هزت رأسها ومضت وهى تحاول أن تبتسم . فكرت أن اقوم انا أيضا واذهب الى الكلية لأبحث عن سمير أو أى واحد اعرفه من الزملاء لأقترض منه نقودا أو على الأقل سجائر . ولكننى كنت متأكداً أننى لن أجد أحداً وكان جسدى مخدراً من الشمس فتمددت على الحشائش ورأيت السماء وتحتها أطراف سعف النخيل تلمع فى الشمس كالمرايا الصغيرة . ثم شبكت يدى فوق عينى فلم أعد أرى شيئا ولكننى سمعت صوت بنات مررن بجانبي وكن يتكلمن ثم أخذن يضحكن فجأة . من منظرى فى أغلب الأمر . وقالت واحدة وهى تضحك « يسقط الطلبة الجبناء ! » ولكنى لم أهتم بالنظر اليهن . كان عقلى أيضا مخدرا . وحلمت أن يمر واحد أعرفه فيعطينى سيجارة ويمضى دون أن يكلمنى .

قبل أن تنتهي الاجازة كنا نرقد فوق السطح أنا وفريدة وفاطمة . كانت الليلة حارة وساكنة والقمر المستدير ينشر نوره فى السماء كسحابة دخان تتناثر على البعد منها نجوم تومض بارتعاشات قلقة . كانت فريدة تتنفس بهدوء وظننت أنها نائمة ولكنى لما أشعلت سيجارتى همست برفق :

ـــ دخنت كثيرا الليلة .

ـــ الحر شديد ولا أستطيع أن أنام .

ـــ نعم ولكن لا تدخن وأنت راقد . أمى تقول أنه مضر . يتكوم الدخان فى الصدر ويكتم النفس .

ـــ لا تصدقى هذا ..

ـــ أمى تقوله .

وراح الكلب ينبح نباحا شديدا خارج البيت فسمعنا أبى كعادته يسعل من حجرته سعالا قويا للتحذير . كان يعتقد دائما أن سعاله بهذه الطريقة يخيف أى لص يحاول أن يتسلل للبيت وقالت فريدة :

ـــ هذا الكلب غريب . ينبح بلا سبب واذا اقترب أحد من البيت يظل ساكنا . ينام أغلب الوقت .

ـــ أصبح عجوزا .

ـــ نعم ولكنه يظل ساكنا اذا اقترب أحد من البيت . لا نعرف أن أحدا يزورنا الا اذا طرق الباب ..

عاد الصمت من جديد وانتهت السيجارة ولم يبق غير القمر المعلق فوق رأسى . ولكن فريدة قالت فجأة بصوت عال :

ـــ هل تأخذنى معك الى مصر ؟

ـــ هسس . ستوقظين فاطمة .

خفت صوتها وهى تقول بنفس الالحاح :

ـــ هل تأخذنى معك الى مصر ؟

ـــ كيــف ؟

ـــ أستطيع أن أخدمك هناك . سأطبخ لك وأغسل ملابسك . سأفعل كل شيء .

ـــ نعم ولكن كيف ؟ تعرفين أن أبى لن يوافق .

ـــ سأجعل أمى تكلمه . ستقول له انك سترتاح وأنا معك وتذاكر وتنجح . سأجعلها تكلمه اذا وافقت أنت .

ـــ ولكن أين سنسكن ؟ تعرفين أنى أسكن مع صاحبى .

ـــ ألا يمكن أن نسكن وحدنا ؟ ألا يمكن ؟ .. قلت أستطيع أن أخدمك . أقصد أنك لن .. لن ..

ـــ هل تبكين الآن ؟

كنت أستطيع أن أرى جسدها الطويل ممددا بجانب فاطمة على فراشهما المفرود بالقرب منى ، ولكنها كانت قد أمالت رأسها فلم أر سوى رقبتها البيضاء والأطراف الرمادية المكورة للمنديل الذى تعصب به رأسها .

ـــ فريدة ، هل تبكين ؟

ـــ لا .

ـــ أنت لا تبكين لأنك تريدين أن تأتى معى الى مصر ؟

ـــ لا ، كنت أضحك معك . النوم يعاندنى . وأنت ايضا لا تستطيع أن

تنام . أردت أن نتكلم معا .. أردت أن ..

ثم فجأة قالت فريدة بصوت باك ـــ قل لى ، لماذا نعيش ما دمنا سنموت فى النهاية ؟

ـــ هذا هو السؤال الذى حير كل الناس يا فريدة .

قالت وهى لا تزال تحاول أن تكتم بكاءها ـــ يسامحنى ربى يا أخى ولكننى أفكر ، لو أننا نموت جميعا ، أنا وأنت وكل من نحب ، كلنا معا ، فى وقت واحد حتى لا يحزن أحد على أحد ولا يبكى أحد على أحد . لو أن الناس كالزرع ..

ـــ فريدة ، هل تفكرين فيه الآن ؟

ـــ مـــن ؟

ـــ هل هذا هو سبب بكائك ؟

ـــ من ؟ لا أعرف عمن تتكلم .

كانت تبكى لحظتها بكاء واضحاً ، وجسدها كله يختلج وخافت أن توقظ فاطمة فقامت فجأة وجرت نحو السور ورأيتها تميل بجسمها على السور وتضع رأسها بين كفيها . كنت أراها هناك بثوبها الداكن الطويل ويديها حول رأسها ، وكنت أستطيع أن اسمع بكاءها وشهقاتها ولكننى لم استطع أن أقوم أو أن أقول شيئا . كنت اعرف انها لا تريد ذلك وانه بلا فائدة .

عندما فتحت عينى كان جزء لامع من الشمس يطل على من بين سعف النخيل وكانت ساعة الجامعة تطن من جديد ونملة تلدغنى فى رقبتى . لم أنم سوى دقائق قليلة ولكن جسدى كله كان متعبا وأشعر برطوبة الحشائش لزجة فى ظهرى . فركت النملة الصغيرة بين أصابعى وظننت انها تموت عندما رأيتها ترتجف وقد تقوس جسمها الى نصفين ولكنها راحت تحرك أرجلها الصغيرة وتمشى ببطء على اصبعى المبللة بالعرق فاضطررت ان أقتلها باحكام وقمت وأنا أنفضها من بين أصابعى .

فى الطريق الى البيت رأيت قبل أن أعبر كوبرى الجامعة جنودا ملتفين حول عربة سوداء بداخلها ضابط ولها ايريال . وتكررت نفس الصورة عند طرف الكوبرى الآخر وأمام كلية الطب وفى عدة أماكن أخرى على طول الطريق . وعندما دخلت شارعنا الصغير فى المنيرة رأيت ثلاث عربات للأمن المركزى ممتلئة بجنود يلبسون الخوذات ويمسكون العصى وكانوا يطلون من عرباتهم على الشارع الهادىء صامتين بينما وقف الضباط بجانب احدى العربات يدخنون ويتكلمون . تجاوزتهم وملت على عم مسعد البقال وطلبت منه زجاجتى بيرة . نظر الى وضرب كفا بكف ثم سكت . ولكن عندما كررت طلبى هب من جلسته وأخرج رأسه من مدخل المحل وقال أن ذلك سيحدث فقط عندما أرى حلمة أذنى أو عندما أدفع الحساب المتأخر . اكتفيت بأن أطلب منه علبة سجائر فأخرج الدفتر الذى يقيد فيه حسابى وبدأ يقرأ على الأرقام والتواريخ وهو يلوح بيديه فانصرفت عنه . لم يكن سمير فى الشقة أيضا عندما وصلت ، وكان البيت معتماً وحاراً فدخلت الى غرفتى وفتحت النافذة . رحت أبحث فى المنفضة ولكن أعقاب السجائر كانت كلها قصيرة وجافة ولا تصلح لشىء وعندما أشعلت احداها ملأ حلقى طعم الرماد والدخان اللاذع من الفلتر المشتعل فاضطررت أن أتركها على الفور وأنا أسعل وأشعر بالغثيان . رقدت على السرير ورحت أفكر فى حل . لم يبق الا أن أقترض من البواب ولكن كيف ؟ أولا يجب أن يكون المبلغ الذى أطلبه صغيراً وثانياً يجب ان أفعل ذلك بطريقة عابرة . هل أقول له مثلا أننى احتاج الى فكة صغيرة ؟ ولكن ماذا لو طلب منى الصحيح ليفكه ؟ لابد من المحاولة على أية حال . ليس امامى غيره . وعندما استقر رأيى على ذلك سمعت صوت مفتاح يدار فى الباب فجريت الى الصالة ولكنه لم يكن سمير . كانت سوزى .

قالت ــ سمير هنا ؟

فقلت ــ لا . أليس معك ؟ أليس هو الذى أعطاك المفتاح .

ضحكت وقالت وهى تتقدم بارتباك ــ لا ، المفتاح معى من زمن . ألم تكن تعرف ؟

ـــ لا .

جلست على كرسى فى الصالة ووضعت حقيبتها على المائدة وقالت :

ـــ متى يعود سمير ؟

ـــ ليتنى أعرف .

فتحت حقيبتها وأخرجت علبة سجائر وقالت ؟

ـــ تأخذ سيجارة ؟

ـــ كليوباتره ؟

ـــ نعـــم .

ـــ لا مانع .

ثم جلست على كرسى بجانبها وبدأت أشرح .

ـــ كنت سأنزل الآن لأشترى سجائر .

ـــ معى الكفاية . كليوباترة .. كنت .. كرافن ..

كانت تقول ذلك وهى تخرج من حقيبتها علبا بيضاء وحمراء ولكننى حسمت :

ـــ أفضل الكليوباترة .

ثم أشعلت السيجارة وسمعتها تقول :

ـــ ماذا حدث ؟ هل أنت متعب ؟

ـــ لا . دوار خفيف . يحدث لى أحيانا .

ـــ يحسن ان تنام .

ـــ لا .. لا .. سيزول هذا الآن .

قامت ووضعت يدها على كتفى ثم بدأت تمسح جبينى بيدها الاخرى وقالت ـــ ولكن وجهك مصفر يا صاحبى . ما كل هذا العرق ؟ .. أنت مريض ؟

أبعدت يدها عن كتفى برفق وقلت وأنا أرفع رأسى ـــ اجلسى يا سوزى . قلت لك لا شيء .

وبالفعل مع نفس السيجارة الثانى زال الدوار اللذيذ للنفس الأول وبدأت الحياة تعود لأصلها . ضحكت سوزى وقالت وهى تعود لمقعدها .

ـــ ماذا جرى لكم يا شباب ؟

ـــ تعرفين كثيرا من الشباب أليس كذلك ؟

ـــ أكثر من الهم على القلب . كويتيون .. سعوديون .. أولاد بلد .. كله .

ـــ وماذا جرى للجميع ؟

ـــ لا أعرف . تغيروا . المريض مريض والقرفان قرفان والذى يخرج فى الاضرابات والذى قبض عليه البوليس والذى رحلوه من البلد .. لا أعرف ماذا جرى للدنيا .

ضحكت وأنا أقول ـــ على الأقل لديك سمير كما هو ، أليس كذلك ؟

ضربت المائدة بيدها وقالت :

ـــ سمير ؟ سمير أول من تغير . كيف لا تعرف ذلك وأنت زميله فى السكن ؟

ـــ فى الحقيقة نحن لا نرى بعضنا كثيرا . كل واحد فى حجرته .

ـــ ولكن لماذا ؟

ـــ ربما لأنه يخرج طول النهار وأنا أخرج بالليل ولهذا لا نلتقى .

ـــ معك حق . نادرا ما أراك . وفى المرات القليلة التى رأيتك فيها ، ولا

مؤاخذة ، كنت أظنك مغروراً جداً . لا تكلم أحداً .

ـــ أنت مخطئة فى هذا .

ـــ ممكن ، ولكنى أقول لك عن شعورى بصراحة . يعنى ، سامحنى ، الواحدة منا تحب الإنسان الذى يحبها أو يتكلم معها بدون غرضْ . أنا لا أعرف ماذا يقول لك سمير عنى ..

ـــ يقول كل خير .

ـــ ممكن ، ولكن هل تصدق ؟ أنا أحب سمير مثل أخى .

أفلتت بالرغم منى ضحكة ندمت عليها لكنها مضت تقول وهى تعطينى سيجارة أخرى وتشعل لنفسها واحدة .

ـــ نعم أنت لا تصدق ولكن هذه هى الحقيقة . طبعا سمير كريم جدا وخيره علىّ . ابن حلال حقيقى يعنى . عندما يكون معه قرش يحب أن يصرفه . صدقنى اننى انصحه بعض الساعات أن يوفرْ قرشه ولكنه لا يسمع الكلام .

ـــ نعم ، معك حق هذا هو سمير كما أعرفه . يحب أن يصرف ويحب أن يضحك . لا يحمل هما للدنيا .

تنهدت مرة أخرى وقالت ـــ هذا كان من زمن . قبل أن يغرق فى السياسة .

قلت وأنا أصرخ تقريبا ـــ سمير ؟ .. فى السياسة ؟

نظرت سوزى الى فى شك وقالت :

ـــ يعنى انت لا تعرف ؟ من يبحث يجدك مثله وألعن .

سكت ولزمت سوزى الصمت أيضا وبقينا ننظر الى بعضنا ولكن سوزى مدت يدها وأمسكت بيدى الموضوعة على المائدة وقالت بصوت خافت :

ـــ أنت صاحبه ، وأنت عاقل . أريدك ان تنصحه .

ــ نعم ، سأنصحه .

رفعت يدى قليلا وهزتها وهي تقول :

ــ لا تكلمنى وأنت شارد . انتبه الىّ أرجوك . صدقنى ، يعنى من مدة .. أنت ضحكت عندما قلت لك أنى أحب سمير مثل أخى . لا .. لا تتكلم ولكن ، أحلف لك يعنى ، من مدة أنا وسمير لم يعد بيننا ما كان من قبل . كل الحكاية أنى أجيء اليه وأشكو له همى .. وهو أيضاً من مدة لا يفعل شيئا غير أن يشكو لى همه .. يكلمنى أنا الجاهلة عن السياسة واليهود وسيناء وفلسطين وأحيانا يبكى . سمير ، سمير الذى لم يكن يعرف غير الضحك والفرح بعض ساعات يبكى وأنا .. أنا خائفة عليه ..

قالت ذلك ثم أجهشت بالبكاء فجأة وراح جسدها كله ينتفض . أحنت رأسها وهى لا تزال تمسك بيدى وتقبض عليها بقوة . وراحت تبكى وتنشج نشيجا خافت الصوت .

وكان دورى هذه المرة أن أقوم وأربت على كتفها وأهمس بكلمات لا معنى لها قائلاً :

ــ لا تخافى .. لا تبكِ .. سمير بخير .. سمير سيكون بخير .. سأقول له أن ينتبه الى نفسه . لا تخافى ..

وأخيراً أخرجت منديلا من حقيبة يدها ومسحت عينيها وتمخطت ومددت أنا يدى وأنا لا أزال واقفا خلفها فأشعلت لها سيجارة وناولتها لها فقالت :

ــ اشكرك . أنا متأسفة ولكننى مشغولة على سمير . ليته يأتى الآن . كنت عند ميدان التحرير وهناك كانت مظاهرة .. وكان .. يعنى .. قلت لنفسى أمر لأطمئن عليه . ليته يأتى ..

قلت ــ سيأتى ان شاء الله . سمير مثلى ، لا شأن لنا بالمظاهرات .

ثم جلست إلى المائدة واضعا رأسى بين يدى وسمعتها تقول :

ــ كنت تقول انك تنوى النزول . هل أعطلك ؟

ــ أبدا . لم يكن شيئا مهما .

تأملت وجهها الذى لطخت الدموع فيه مساحيق العين السوداء بمساحيق الوجنة الحمراء ووجدتنى أقول :

ــ أنت بنت حلال يا سوزى .

فقالت وهى تقوم وتحاول أن تضحك ــ نعم يا سيدى ؟ ينقص ان تقول لى كما يقول سمير أنت ضحية المجتمع يا سوزى . هل يعلمونكم هذا الكلام فى السياسة ؟ هل ستنصحنى أيضا مثل سمير أن أترك المشى البطال وأبحث عن عمل شريف ؟

قلت بشىء من الحدة ــ أنا لا شأن لى بالسياسة .

فقالت وهى تبتعد ــ لا تزعق هكذا . أنا يعنى البوليس ؟ عن اذنك دقيقة . سأدخل الحمام .

أخطأت حقا اذ احتددت عليها . ما ذنبها ؟ ولكن هل تعنى حقا ما تقول ؟ .. سمير يشتغل بالسياسة ؟ سمير طفل لم يكبر أبدا . عندما يبعث له أبوه النقود فى مطلع كل شهر يقيم وليمة كباب ويدعو سوزى وصاحباتها ويدعو أصحابه ويظل العيد ممتدا حتى تنفد النقود فيذهب الى خاله فى شبرا ويقترض منه ويبعث برقية الى أبيه فيأتيه المدد بالبرق أيضاً . أبوه لا يرد له طلبا لأنه لم ينجب سواه . سمير يعمل بالسياسة ؟ هذه نكتة اخترعها . لابد أنه يمثل دورا ليضحك على سوزى . ولكن كيف أعرف ونحن بالفعل لم نعد نلتقى الا فيما ندر ؟ بل أعرف وأبصم بالعشرة . الا سمير !

مددت يدى الى علبة السجائر الموضوعة على المائدة وأشعلت واحدة أخرى وكان صوت (الدش) الرتيب يأتى من الحمام . ولكن هل أبوه كريم حقا لأنه لم ينجب غيره أو لمجرد أنه كريم ؟ يبدو أن هذه الأمور بالفعل وراثية وان سمير كريم لأن أباه كريم وسينجب ابنا كريما يحبه الناس أيضا وهكذا . وأنا أيضا ابن أبى . هذا مؤكد . متى كان أبى كريما معى حقاً ؟ .. لقد علمنى وهو يرسل لى النقود فى مطلع كل شهر لا تزيد ولا تنقص . ولكنه مرة عندما نجحت فى الاعدادية اشترى لى دراجة . هذه هى النادرة الوحيدة . وتحطمت الدراجة فى نفس الأسبوع . كنت فرحاً بها فرحاً لا يصدق . وفى ذلك اليوم كنا على الجسر قرب الغروب عندما تستطيل ظلال الأشياء على طريق المطار المرصوف الممتد من قريتنا حتى المدينة والذى نسميه الجسر . وأسفل الطريق على الجانبين الزرع الصيفى الأخضر الجديد . كنا عائدين من زيارة . فريدة ومنيرة ابنة عمى تركبان حمارا صغيرا وتلبسان ثيابهما السوداء الطويلة ، ولكن فريدة لم تكن قد بدأت تغطى وجهها بل تضع شالا أحمر مخططا على رأسها وكتفيها لانها لا تزال طفلة ، مسموح لها أن تذهب للمدرسة وان تكشف وجهها . وكانت تتشبث بمنيرة التى امسكت بالعصا وراحت تعجل الحمار بضربات سريعة هينة على رقبته . وكنت أنا أركب العجلة وحسين امامى تتدلى رجلاه الى يسارى وقد تشبث بيديه بمقدمة العجلة . وكنت مزهوا بأن أسبق منيرة وفريدة بمسافة كبيرة وانتظر الى ان يصل الحمار بخطوات قصيرة متعجلة ومنيرة تغمز جنبه بقدميها وتستحثه بأصوات لا معنى لها كما يفعل الرجال . ثم بدأت أعاكسها : رحت أتخلف عنهما مسافة ثم اندفع مسرعا وأنا أضرب الجرس فيجفل الحمار فجأة فى ذعر ويقترب من حافة الجسر وتصرخ منيرة وفريدة ولكنى أبتعد فى الوقت المناسب . وكان حسين يحاول ان يمنعنى وهو يستحلفنى وحياة رأس أبى وأبيك يا ابن عمى وحياة رأس أبيك لا تفعل ذلك . ولكنه كان يخاف ان نسقط معا ان تحرك فاكتفى بأن يهز رأسه وحدها وهو يستحلفنى بحياة رأس أبى وأبيه . وبينما كنت أقترب منهما فى المرة الثالثة أو الرابعة توقف الحمار فجأة فحاولت أن أميل لاتفاداه ولكننى لم استطع فاندفعت العجلة وسقطنا أنا وحسين من على الجسر . لم نقع فى الزرع ولا فى

الطين ولا حتى فى الترعة الصغيرة أسفل الجسر وانما فى حفرة صغيرة مليئة بالأشواك . سقطت على ظهرى والعجلة فوق وحسين ايضا فوق وسمعت فريدة ومنيرة تصرخان فوق الجسر . وظللنا إسبوعا كاملا راقدين أنا وحسين فى بيتنا . ولم تكن الجراح والرضوض تؤلمنا قدر الأشواك التى قالت أمى انها أخرجتها بالملقاط ، ولكن الوخز ظل مستمرا وظل ظهرى متورما وأنا اشعر ان شجرة صبار بأكملها ملتصقة به . وقالت فريدة ان ربنا يخلص الذنب ولكنها اشفقت علينا وظلت ترعانا وتدهن بالزيت جلودنا الملتهبة . وعندما أتى عمى ليزورنا وكنا راقدين فى غرفة واحدة أنا وحسين قال عمى لأبى — سنعطى فريدة لحسين فقال أبى ومن لها غير ابن عمها ، ولكننا لم نهتم بذلك فقد كنا صغارا وكنا نعرف دون ان يقول أحد أن هذا قد تقرر من قبل وان فريدة له كما ان منيرة لى . أما فريدة فجرت من الغرفة فى حياء وهى تغطى وجهها بشالها الأحمر فراح أبى وعمى يضحكان وضحكنا نحن أيضا . ولكننى بكيت يوم تزوجت منيرة من ابن خالها بعد ذلك بسنة . يوم الفرح هربت الى حديقة عمى القريبة من الجبل . وكان حسين يعرف مخبئى فجاء الى وشكوت له من أبى الذى يريد ان أتعلم حتى الجامعة ومن عمى الذى زوج منيرة لأنها لا تستطيع ان تنتظر كل هذه السنين وقلت له اننى لا أريد أن أتعلم واننى سأهرب من البلد قبل الفجر فقال حسين انه ايضا سيهرب معى . لكنهم عندما افتقدونا فى الفرح وجدونا نائمين فى الحديقة . ترى ماذا كان يحدث لو تزوجت منيرة ؟

— هوه .. أنت يا صاحبى .. هل أنت شارد دائماً ؟

كانت سوزى تهز كتفى برفق فتطلعت لها . بدت أجمل بكثير بعد أن اغتسلت . كانت خصل شعرها قد انكمشت والتفت على بعضها ونزلت منها قطرة ماء على يدى الموضوعة على المائدة . وبدا وجهها المستدير أنضر بعد ان زالت منه المساحيق والأصباغ ، وانفرجت شفتاها المكتنزتان بابتسامة هادئة وهى تنظر الىّ من وراء كتفى ..

قالت ـــ ما بك ؟

فقلت ـــ لا شيء .

مالت على فجأة وقبلتنى فى جبينى ثم قالت وهى تتجه الى المرآة المكسورة فى الصالة :

ـــ حملك ثقيل يا صاحبى .

ـــ كيف عرفت ؟

ـــ مرسوم . كل انسان مرسوم على وجهه حمله .

وقفت تمشط شعرها أمام المرآة وقد مالت برأسها بعيداً عنى ثم سألتنى دون أن تنظر الىّ .

ـــ اسمع . أتظن ان الله يغفر لى ؟

ـــ هذا سؤال صعب يا سوزى .

توقفت عن تمشيط شعرها وظلت صامتة لفترة ثم قالت :

ـــ نعم . ولكن الله يغفر لمن يتوب أليس كذلك ؟

لم تكن تنتظر اجابتى هذه المرة . ولكنها جاءت وجلست قبالتى وراحت تعبث بالمشط وهى شاردة ثم قالت :

ـــ أتصدقنى يا .. ما اسمك ؟ فى الليل ، فى آخر الليل عندما أكون وحدى أظل أدعو الله ان يغفر لى .. أظل أدعوه بالساعات وأنا أبكى .

قلت فى حذر ـــ كما قلت أنت بنفسك ، الله يغفر لمن يتوب .

فقالت وهى تهز رأسها ـــ نعم وأدعوه أن أتوب .

سكت فقالت وهى تدق بالمشط على المائدة :

ــ لم لا تسألنى ولماذا لا أتوب ؟

فقلت ــ لابد وأن لديك مشاكل تضطرك .

فضحكت ضحكة قصيرة وقالت ــ أبداً يا سيدى . انا بنت حرام . هذه هى الحقيقة يا سيدى .

ولكن عينيها لمعتا بالدموع وهى تشيح بوجهها عنى وتقول :

ــ أتوب يومين ثم أعود . واذا لم أعد من نفسى يأتى من يطلبنى فأعود . أقول لنفسى ما الفائدة ؟ وهل بعد الكفر ذنب ؟ يعنى أنا اسمى عند الناس كذا وسأظل فى نظر الناس وفى الحقيقة كذا مهما فعلت . وحتى لو عدت للعمل الشريف كما يقول سمير فهل يتركوننى فى حالى ؟ هل تصدق ، أنت لا تصدق ولكن لا يهم ، أنا كنت فى الأصل ممرضة ومعى شهادة . كنت صغيرة لا أعرف شيئا عندما اشتغلت . وأغوانى الدكتور الله يخرب بيته . لم يكفه ان خسرنى بل كان يأخذنى لأصحابه وعلمنى الحشيش والسكر . ابن حرام أصلى هو الآخر . هل تصدق بالله ؟ عندما كان يأخذ نوبة الليل لم يكن يطل على مريض . كان يجرى وراء الممرضات أو ينام فى سريره حتى الصبح ويقول مشيرا لعنبر المرضى أسكتوا أولاد الكلب . أعطوهم أسبرين أو نوفالجين وأسكتوهم . وكنت أبكى عندما أرى مريضا يتألم ولكننى لا أجرؤ أن أوقظ الدكتور . أعرف أنه سيأتى ويزعق فى المريض ثم يعطيه حقنة نوفالجين ويعود لينام . كان يحتاج للنوم ليستطيع أن يشتغل فى عيادته فى ثانى يوم . قل لى أنت يا متعلم يا من تفهم أتظن أن هذا عمل شريف ؟

ــ أنت قلت انه ابن حرام ، وكل ما أعرفه يا سوزى ان هذه الدنيا مملوءة بأولاد الحرام .

ــ نعم وأولاد الحلال يضيعون نفسهم من أجل أولاد الحرام . أنت لا تعرف يا سيدى ماذا رأيت اليوم ولا لماذا يأكلنى قلبى على سمير . ولكنك لو رأيت ما

رأيته ! .. قلت لك كانت هناك مظاهرات فى التحرير ولكنى لم أحك لك كل شىء . لا . لا تقلق لم أر سمير ولا أعرف عنه أى شىء ومع ذلك جئت لأطمئن عليه . كنت آتية من شبرا فى الترام ، وقبل أن نصل الى ميدان التحرير ، عند الأنتكخانة وقف الترام وكانت تقف أمامه عربات ترام كثيرة . ورأيت عند سور الأنتكخانة كثيرا من العساكر بملابسهم السوداء وعلى رؤوسهم برانيط الحديد وبأيديهم الشوم . سألنا فقالوا لنا أن مظاهرة الطلبة فى ميدان التحرير وجاء السائق فجلس معنا فى ديوان الدرجة الأولى وهو يقول ربنا يستر . نزل كثير من الركاب وبقى معى فى الديوان رجل عجوز ومعه ابنه الشاب وكان يصرخ فيه ووجهه محمر والولد ، يا عينى ، لا يفتح فمه بكلمة . كان يقول ماذا يريدون ؟ يريدون أن يخربوا البلد ؟ يريدون أن نحارب ونحن لم نستعد ؟ عندما كنا شبابا كنا نعمل مظاهرات ضد الانجليز . قال هذا وهو يدير نظراته بيننا نحن الجالسين فى الديوان ولا أعرف ماذا كان يريد منا أن نقول له لانه كان هو نفسه الله يخرب بيته يمشى فى المظاهرات ضد الانجليز . وكلما علا صوته كلما أحنى ابنه رأسه فى الأرض . وكنا مجبرين أن نستمع اليه لاننا كنا محبوسين فى الترام والناس يقولون ان البوليس يضرب الطلبة فى ميدان التحرير . وأخيرا خرس واصفر وجهه عندما رأينا العساكر الواقفين عند الانتكخانة يجرون ناحية الميدان وهم يرفعون عصيهم . وحين نظرت من شباك الترام رأيت حولى خمسين أو ستين من الطلبة يجرون وهم يضعون كتبهم وأيديهم على رؤوسهم ومن ورائهم العساكر والطلبة يقولون بلادى بلادى والعسكر يضربون ولا هم هنا . وقابل الطلبة وهم يجرون العسكر الذين كانوا يقفون عند ميدان الأنتكخانة وحصروهم بينهم وبالشوم وهات . وجرى واحد من الطلبة وقفز الى ترام واقف ووثب من شباكه الى الناحية الأخرى خلف صف العربات الواقفة ولكن كان هناك عساكر أيضا عند أول شارع شامبليون ، فاستدار وقفز من شباك الترام الذى نركبه وزحف على يديه ورجليه حتى أختبأ فى الديوان عند أقدامنا . كان مجروحا فى رأسه والدم ينزف من جبينه على أرضية الترام فأعطيته منديلى لكنه كان صغيرا ورحت أفتش فى شنطتى عن شىء أكبر

وكانت إمرأة عجوز تجلس على أرض الترام قرب ديوان الدرجة الأولى وهى تستند على قفة فأخرجت منها خرقة كبيرة وأغطتها له وهى تقول يا كبدى يا ابنى . وفى هذه اللحظة صعد الى الترام عسكرى وهو يلهث وزملاؤه تحت يقولون له هنا هنا .. فتش الترام وبدون أن تنظر المرأة العجوز أزاحت قفتها قليلا لتخفى الطالب المقرفص على الأرض ولكن العسكرى رآه وهمّ نحو الديوان فقالت العجوز بصوت خافت ربنا يسترك يا ابنى . لو عندك ابن أو أخ صغير ربنا يبارك لك . مجروح يا كبدى . ومدت يدها على قفتها وكأنها ستسد باب الديوان .

وتطلع العسكرى إلى وجوهنا ثم الى الطالب على أرضية الترام ووقف قليلا ثم استدار لينزل ، ولكن كان زميل له يحاول أن يصعد تسبقه عصاه فقال له لا أحد هنا . انا فتشت الترام ، ولكن زميله دفعه فى صدره وهو يقول بل هنا . فتشنا كل العربات الأخرى . ولكن العسكرى وقف يسد الباب ويدفع زميله وهو يقول قلت لك لا أحد هنا . تعال نفتش العربات الأخرى . وفى هذه اللحظة يا سيدى وقف الأفندى ابن الحرام صاحب المظاهرات ضد الانجليز وقال مناديا العسكرى وهو يشير بيده الى الأرض . هنا يا عسكرى . تعال هنا . دفع العسكرى الواقف على السلم زميله حتى كاد يقع وداس على المرأة العجوز وهجم على الطالب ورفعه من رقبته وحاول الطالب أن يقف وهو يقول بلادى بلادى ولكن العسكرى أخذ يجره على ركبته ويقول له أخرس . وعندما دخرجه خارج الترام وتلقفه العساكر الآخرون بالشوم كفت المرأة العجوز التى هرسها العسكرى عن التأوه وتطلعت الينا كأنها تستفسر منا ، ثم نظرت الى الأفندى الذى كان لا يزال واقفا وبصقت على أرض الترام دون صوت . وفجأة قام ابنه الذى كان يضع يده على وجهه ثم اندفع يجرى خارج الترام وهو يبكى ويصيح بلادى بلادى فتلقفه العسكر . وصرخ الأفندى وهو يهمّ وراءه يا ولد وقام يصرخ فى العساكر الذين يسدون باب الترام لا تضربوه . هذا ابنى . ابنى أنا . لكن أحدهم لكزه فى صدره بعصاه وصرخ فيه ارجع مكانك يا أفندى . فانحط مكانه . أنظر . أترى الى هذه البقع الصغيرة من الدم على الفستان . انها دم الطالب الذى تناثر علينا عندما رفعه

العسكرى من على أرض الترام . أين هو الآن يا ولداه وأين الأفندى ابن الحرام ؟ وأين سمير ؟ .. قالت ذلك ثم أحنت رأسها فجأة وأجهشت بالبكاء مرة أخرى ...

ثم جاءنى صوت سوزى وهى تصيح وتهزنى :

— ماذا بك ؟ ماذا بك ؟ يا للمصيبة ! تكلم ! رجعت لك الحالة ؟

— نعم ، رجعت . كل شيء يرجع . كل شيء من جديد .

— غلطتى أنا الله يخرب بيتى . ليتنى ما حكيت لك . قلبك ضعيف الى هذا الحد ؟ يا للمصيبة ما كل هذا العرق ؟

— كفى يا سوزى . لا تخافى .

تحاملت على نفسى ووقفت مستندا الى المائدة ثم قلت لها :

— عن اذنك . سأدخل لأنام لحظة .

— أسندك حتى السرير ؟

— لا ، اذهبى أنت أو انتظرى سمير ان شئت . لا تهتمى لى .







وها أنذا على فراشى لكننى لن أموت . العرق البارد يجف . ضربات القلب السريعة تهدأ . والضباب الذى على عينى يزول . لا لن أموت . ستنتهى هذه الحالة كما انتهت غيرها وغيرها وفى المساء سأكون مهيئا لأن أشر من جديد. لا يأتى الموت حين يود الانسان أن يموت . لا يأتى الموت لمجرد ان الإنسان يكره حياته . ملايين الناس تعيش هكذا . ربما . لست متأكدا . لا أعرف . ولا أعرف ايضا ان كنت مستعدا للموت أم لا . ألم يكن ذلك ما فكرت فيه ليلتها ؟ حين حكت لى أمى ماحدث ذهبت فى الليل الى المكان ، أمام المسجد الصغير. كان معتما وخاليا بعد صلاة العشاء . استفهمت من مئذنته القصيرة ، استفهمت من جدرانه . من ساحته الخارجية المكشوفة التى تحف بها لتحددها قطع صغيرة من الحجارة البيضاء . كانوا هنا جميعا ، فرشوا سجاجيدهم الصغيرة وصلوا ثم حدث ما حدث . استفهمت من الخلاء ومن بقعة الأرض لكننى لم أشعر بشىء . لم يكن هناك أحد أسأله ويحكى لى . وماذا كنت أريد أن أعرف بعد ما عرفت ؟ ظللت

أمشي . عبرت الجسر كله حتى وصلت الى شاطىء النيل قرب المدينة . نزلت حتى حافة الطين لأمشي فى النهر الأسود حتى الموت . فما الذى أوقفنى عندئذ ؟ لم يحدث شيء مهم يوقفنى . لم يحدث شيء على الاطلاق . كان هناك الصوت الخافت لموج هادىء يتكسر على الطين . كان سكون . صهل حصان من بعيد . رأيت أعمدة المعبد القديم على الشط المقابل فى ضوء القمر . كانت تشبه نخيلا بلا سعف . كانت حزينة . وكان القمر فوقها ، فوقها تماماً ، عيناً فضية كبيرة تتطلع للخراب والحياة فى هدوء وصمت .

ما الذى حدث ؟ لم يحدث شيء ولكن قلبى أخذ يدق بعنف واندفعت الدموع التى ظلت حبيسة طول النهار ، لكنى عرفت ايضا ساعتها أنى أجبن من أن أموت حتى لو اردت . كان باستطاعتى ان أفعل ذلك من قبل وأن أموت لسبب . فقد ادركنا منذ ذلك اليوم البعيد ، حين عدت من القاهرة فى آجازة السنة الثانية ، أن شيئا سيحدث . أدركته أنا وأدركه أبى وهو يجلس على دكته العاليه فى صحن البيت وبجواره عمى . قال أبى وهو يتشاغل بتسوية فراء الخروف الناعم الذى يتربع فوقه لكى لا تلتقى عيناه بعمى يا أخى وما أهمية بضعة قراريط . قال عمى الشرف . قال أبى ربنا يقول ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة فرد عمى ويقول أيضاً ومن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه .

وكنا نجلس واجمين أنا وحسين . كنا على الأرض متقابلين نتابع الحوار ولكننا لا نملك ان نشارك فيه . وثبّت أنا نظرى فى الأرض . سمعت أبى يقول فى صوت ضعيف والحكمة ؟ فرد عمى ومن الذى يجب ان يشكو أنا أم هم ؟ الأرض ازرعها واعرفها من يوم ان مات أبى ومن قبل ان يموت . أرضى وقد نزل عرقى فى كل شبر منها وقلبته يدى. وقبل ان يموت أبى بيومين وكنت أنت أيامها فى الأزهر قام وهو مريض وأخذنى من يدى لأرض الشرق وقال كل هذه النخلات لك وكل الأرض فى شرقها حتى الجبل لك ولأخيك . ثم قال خذنى الى الحديقة ، وحين ذهبنا وقف يتطلع لأشجارها ثم جلس على الأرض وانتزع قبضة من طينها فتته بين

أصابعه وقال لى أتعرف ، كانت هذه الأرض كلها رملا وحسكا وزرعتها بيدى شجرة شجرة . والآن يريدون ان يأخذوا أرض الحديقة وتريدنى ان أسكت ؟ وماذا أقول لأبى فى قبره حين أنام جنبه ؟

قال أبى : يا أخى أنت تعرف انها فى حضن أرضهم وتعرف انهم أشرار .

فقال عمى غاضبا : أليست الأوراق معك ؟ أليست حقنا ؟

ـــ نعم ، ولكنهم يقولون ...

ـــ أليست أرضنا ؟

ـــ نعم ، ولكن ...

ـــ اذن ليشربوا من البحر . اذا ذهبوا للمحكمة فمعى أوراق ، واذا كانت مع أحدهم بندقية فأنا أيضًا معى .

قال أبى : أنت تركب رأسك ولا فائدة من الكلام معك . الناس يقولون معهم أوراق قديمة من أيام الجدود . وأنا اتفاهم معهم بالعقل وأقول يحكم القاضى .

قال عمى : اسمع يا أخى . أنت أخى الأكبر وتحفظ كلام ربنا وقد منعت لسانى دائما ان يقول لك ما لا تحب ولكن الكيل فاض .

ـــ ماذا تقصد من هذا الكلام ؟

ـــ أقصد أنهم أصحابك . أنا أخوك . لحمك ودمك وانتظر ان تنصرنى ان احتجت لنجدتك ولكن أصحابك أغلى عندك من أخيك . أو لعلها مصلحتك . أنا اعرف يا أخى ان كثيرا من ارضهم مرهونة عندك وأنك تقرضهم . كلهم . كل بيوتهم وكل واحد منهم له عندك حساب .

ـــ كـــذب .

ـــ أبدا . كل البلد تعرف ان اولاد الحاج صادق يأتون لك فى ذلة ليقترضوا منك ومع ذلك فأنت الذى تعاملهم فى الطريق بذلة ولا ينقص الا ان تقبل أيديهم ..

ـــ يعنى لابد ان اكون مجرما لكى ترضى ؟ أهذا ما تريد ؟ أن أحمل بندقيتى على كتفى وأمشى فى البلد كالمجرمين ؟

ـــ سامحك الله . ستعلم غدا من هم المجرمون . ولكن تذكر . لقد بدأوا اليوم بأرضى وسيجورون غدا على ارضك . أنت لا تريد ان تفعل شيئا ولا يكلف الله نفسا الا وسعها . لن أطلب منك شيئا .

قام أبى غاضبا فانزلق فراء الخروف من الدكة على الأرض بينى وبين حسين وأثار غبارا وقال أبى لعمى كيف تكلم أخاك الأكبر بهذا الشكل يا ولد ؟ فقام عمى ايضا وهو يقول ـــ لا بهذا الشكل ولا بغيره . سلام عليكم .

خرج عمى مسرعا وقام حسين وراءه وجريت وراءهما حتى الباب . وقف حسين لحظة وهو يمسك بالباب المفتوح شاحب الوجه ثم قال ـــ أتعلم ؟ ارض الحديقة هذه كانت أول أرض أصلحها جدك ، وكل البلد تعرف ذلك . حكاية الأوراق القديمة هذه اخترعوها الآن . أطمعهم فينا أبوك . واستدار لينصرف لكنه التفت لى فجأة وقال :

ـــ وهل تعرف أن أباك الذى يحفظ كلام الله يقرض الناس بالربا ؟

قلت ـــ هو أيضا عمك

ولكنه لم ينتظر أى رد بل جرى ولحق بأبيه الذى كان يمشي بخطوات واسعة

ويلوح بعصاه الرفيعة ويضربها فى الأرض ومن خلفه يجرى كلبنا الأبيض يهز ذيله ويتواثب حوله ليتشبث به فضم عمى ثوبه اليه . ونهر الكلب بعيدا عنه . دار عمى حول البيت حيث كان يربط حصانه وظللت واقفا مكانى حتى ظهر وقد أردف من خلفه حسين على ظهر الحصان البنى ورفعت يدى أحييهما لكنهما لم ينظرا الىّ بل غمز عمى الحصان فى جنبه بقدميه فمرق مسرعا وهو منتصب على صهوته يرتفع عنها ويهبط عليها بجسمه كله دون أن ينحنى وحسين يمسك بوسطه ويجاهد ليضبط حركته معه .

لم أكن قد رأيت جدى فقد مات قبل أن أولد بزمن طويل ، لكن البلد كانت تقول عن عمى انه سر أبيه . ورث عنه قامته الطويلة وعيونه الواسعة وحبه للخيل . ومرة قلت لعمى أنت فارس بلدتنا . لم أر أحدا يحكم حصانه مثلك . فهز رأسه مبتسما وقال هذا يا ولدى لأنك لم تر جدك رحمة الله عليه . جدك هو الفارس الحق الذى لم يسبقه خيال . أتصدق يا ولدى أنه كان يثب بحصانه فوق قواديس الساقية ؟ لا أنا استطيع ذلك ولا رأيت من جربه أو فعله غير جدك . أتصدق انى رأيته وهو يحرس الأجران يوقف الحصان ساكنا بالساعات لا يتحرك ولا تسمع له صوتا حتى لتظن أنه لا يتنفس ؟ كان جدك فى الليالى المقمرة يلبس ثيابا بيضاء ويركب حصانا أبيض وفى الليالى المظلمة يلبس ثيابا سوداء فوق حصان أسود حتى يصبح قطعة من الليل فلا يراه لصوص الأجران حين ينقض عليهم . ذلك كان جدك . كان وحيدا بطوله بعد أن مات أبوه ومات أكثر ناسة فى الوباء لكن البلد عرفته وعملت له حسابا . لم يجرؤ أحد أن يعتدى على أرضه أو يسرق له جرنا ، وهل تعرف كيف أصلح جدك الأرض ؟ لم يزد ميراثه كله عن نخلات الشرق وأرض رملية هناك لا تصلح للزرع . وبدأ جدك يذهب وراء الجبل . ثم يعود وقد حمل حصانه ترابا أحمر يغمر به الأرض . يقولون هناك وراء الجبل رمال تغرق فيها الجمال وأوكار ذئاب وضباع . وفى كل مرة كان جدك يخرج ويغيب أياما فيظن الناس أنه تاه أو افترسته الذئاب لكنه يعود وحصانه محمل بالسماد الذى اكتشفه فى الجبل والذى لم يعرف أحد طريقه بعده . وكان الناس

يضحكون مما يفعله ولا يفهمونه . ثم لم يعد حصانه يكفى فصار يستأجر جمالاً ويقود هو القوافل التى تغيب ثم تعود محملة بأكياس التراب الأحمر الذى يسمد به الأرض . وبيديه حفر جدك آبارا وغرس أشجار البرتقال وشجر التين فى الأرض التى صارت بعد ذلك حديقة . ولم يكن أحد يظن ان هذا الزرع فى الأرض الميته سينبت . ونصح الحاج صادق جدك ألا يضيع وقته وطلب اليه ان يستأجر أفضل قطعة من أرضه وان يزرعها اذا شاء . وشكر جدك الحاج صادق ورفض . وراح ينتظر والناس معه تنتظر ولا تصدق . لكن الأرض صحت ، والزراعة صحت ، واخضرت الأرض التى كانت خرابا . جدك يا ولدى كانت يده مباركة .

وحين يروى عمى عن أبيه تلمع عيناه عميقتا السواد وهو يحكى عن النخل والسماد والجبل والجمال فى صوت منغم بالخشوع والحب . كان عمى يحب أباه ويتصرف فى الحياة بعد موته كأنه مازال يعيش معه ويراقبه ، ويريد أن يكون كل ما يفعله جديرا باعجاب أبيه الغائب . مرات كثيرة حكى لى عنه . وكان يعرف فى كل مرة أنى سمعت هذه القصة من قبل ، ولكن فى قريتنا تعاد رواية القصص كثيرا ، ويطلب السامعون اعادة تفاصيل استمعوا اليها بالأمس وأول من أمس . ويقاس وزن الانسان واحترامه بقدر دقة علمه بقصص الأجداد ومعرفته بالقرابات والأنساب وبتاريخ الأسر والمواقع . وتصنع هذه القصص العالم الخاص لبلدتنا . من يعرفها فهو منا ومن لا يعرفها فهو غريب ، له احترامه ان كان يستحقه ، ولكنه لا يدخل دنيانا ولا أسرارنا . تنقضى الليالى فى قصص يتبادلها الجالسون ، ويصوبون للراوى بعض التفاصيل ، ويصححون له درجة قرابة شخص من الأسلاف لشخص آخر ورد اسمه فى الحكاية ويتتبعون نسله وما فعلته بهم الأيام . قصص تلد قصصا وتتفرع فى تفاصيل وحكايات جانبية لا تنتهى . تبدأ من تلقاء نفسها أو تبدأ متعمدة حين يقول احدهم وسط مجموعة أو حتى لشخص آخر يجلس معه تعال نتسامر وتنتهى بالتنهدات وهز الرؤوس ويرحم الله الجدود .

وسمعت عن جدى قصصا كثيرة متفرقة فى هذه الأسمار . سمعت عنه كفارس

وكيف انه حين حل السيل الكبير بالبلد ليلا وأغرقها وهرب من استطاع الى الجبل ، خاض هو بحصانه فى الماء وراح ينتشل النساء والأطفال . وسمعت عن كرمه وكيف كانت مضافته مفتوحة لكل طارق .

ولكن القصة المفضلة كانت حكايته مع الأرض وكيف أصلحها من العدم ، ثم كيف أدهش الناس حين اشترى أول (وابور) رى فى بلدتنا فأصبحت أرضه تزرع ثلاثة مواسم بعد ان كانت البلد كلها تزرع موسما واحدا يعقب فيضان النيل . وقلد جدى الحاج صادق وغيره من الملاك فعرفت بلدتنا ماكينات الرى والزراعة طول السنة . وخلف جدى لولديه أرضا غنية وحديقة وكثيرا من الخيل . وكان كلاهما مزارعا ماهرا زاد من الأرض التى ورثها ، لكن أحدهما كان مثله . فارسا وكريما والآخر كان أبى . نعم ، كنت أعرف أيضا قصة أبى . لم يحكها لى أحد هذه القصة . بل ربما لم يكن يعرفها الا القليل . فقد كان أبى كتوما وحريصا ، لا يعقد صفقاته الا فى السر وعلى انفراد . ولم يكن يقرض غير أغنياء البلد وهؤلاء لم يكونوا يحدثون أحدا عن اسرارهم . لكنى منذ صغرى عرفت أن أبى يفعل شيئا تكرهه أمى . سمعت بينهما اكثر من مرة حديثا هامسا ومتوتراً . أمى بنبرتها المتوسلة الشاكية وأبى بلهجته العنيفة الغاضبة . سمعتها مرة تقول له يستر الله عليك . هذا المال جمر نأكله فى الدنيا وفى الآخرة . لا خير فيه . أخاف على أولادى . ورد أبى من حدثك بذلك يا امرأة ؟ حديث نساء وكذب . وكانت أمى تسكت حين ينهرها أبى ويشتمها . وفى مرة ، مرة وحيدة ، رأيت أمى غاضبة ، هى التى تصرخ فى وجه أبى . كان قد دخل عليها وهى تصلى ورمى لها ثوبا من القماش وقال خذى ، اعملى ثوبا جديدا ، اشتريت لك هذا القماش من مصر . لكن أمى مدت يدها بسرعة وانتشلت ثوب القماش وانتصبت بجذعها على سجادة الصلاة ورمت بالثوب فى وجه أبى وقالت خذه ، خذ مصائبك بعيدا عنى . أنا لا أذوق طعاما من مالك وتريدنى أن البس هذا الثوب النجس الذى جاء بمال نجس ؟ ترميه على سجادة صلاتى ؟ وأنا امام ربى ؟ ووقف أبى مأخوذا يمسك الثوب الذى تدلى طرفه على الأرض ثم خرج وهو يجره وراءه دون ان يرد على

أمي أو يشتمها كما كان يفعل دائما . وخفت أنا ان أسأل أمي عن شيء ساعتها ، وحين سألتها بعد ذلك لم تجب . مسحت على رأسي وقبلتني كعادتها وقالت نجاك الله يا ولدى . فى كل صلاة أدعو ان ينجيك الله ولم تزد لم أفهم وقتها الا ان أمي تكره نقود أبى ، وحين كبرت كرهت نقوده انا ايضا وصرت أخجل منها . كنت قبل ان يحدث ما حدث لا أطلب منه شيئا وأكتفى بالقليل الذى يقدره هو لمصروفى .

وبعد ان اختلف عمى مع أولاد الحاج صادق وتشاجر مع أبى حل فى بيتنا صمت ثقيل . كانت فريدة مختفية معظم الوقت وعندما أراها لاأجسر ان أرفع عينى فى وجهها . آما أمي فراحت تطلق البخور طول الوقت لتطرد الشر وتبكى كثيرا فى غيبة أبى وتقول يا حزنك يا فريدة . يا حزنك يا أم فريدة . وأنا التى كنت أريد ان أفرح بفريدة وحسين هذا الصيف . ومن أين يأتينى الفرح وأنا أعيش فى هذا البيت . قلت تخرج فريدة من بيت الحزن فجاء الحزن الى فريدة فى البيت .

وحين تقول ذلك بلهجة أغانى المآتم تلطم فاطمة الصغيرة التى لم تكن تتجاوز العاشرة على خديها وتحثو التراب على رأسها ، وترى فريدة ذلك وتسمعه فتزداد انزواء ونحولا . ولم تنفع توسلاتى لأمي ولا زجرى لفاطمة التى كنت أضربها أحيانا ، ولكنها ما ان تسمع أمها (تعدد) حتى تعود لما كانت تفعله .

واعتدت ان اذهب لبيت عمى كل يوم دون ان يعلم أبى . كنت أقول لعمى ان الحق معه وان الانسان لا يجب ان يفرط فى حقه والا ما بقى له ما يستحق الحياة فكان عمى يضحك وهو يربت على كتفى ويقول لو سمع أبوك هذا الكلام : ! اياك ان يسمعك أبوك تقول هذا الكلام . كان عمى يعاملنى كشخص صغير ليس مفروضا فيه ان يفهم الكثير عن هذه الامور . فقد كنت متعلما . أذهب للجامعة فى مصر وأقرأ الكتب والجرائد . لا أزرع فى النهار ولا

أحرس الزرع بالليل . وكان عمى يغفر لى كونى صغيرا فيملأنى هذا بالخجل . اما حسين فلم يغفر لى .

فى اليوم السابق لسفرى ، عندما انتهت اجازة الصيف قال لى أريدك فى كلمة . تعال معى . ولم يقل لى الى أين فقد كنت أعرف . خرجنا من بيت عمى الذى كان فى طرف القرية ومشينا على الجسر المرصوف الذى ترقد تحته الحقول . سرنا فى الطريق الذى قطعناه معا مئات المرات منذ صغرنا ونحن نثرثر ونضحك ونحكى الأسرار ونتكلم عندما كبرنا عن النساء وأسرار الجنس . لكننا فى هذه المرة سرنا صامتين تغمرنا الشمس والعرق الى ان اقتربنا من بيتنا الذى كان يقف وحده فى الخلاء كما بناه جدى وورثه أبى . وقبل بيتنا من ناحية القرية تنتهى الحقول ويصبح الجسر طريقا مرصوفا وسط الرمال . وكانت هناك وسط الرمل حفرة عميقة خلفتها احدى قنابل الانجليز التى طاشت عن المطار ايام حرب بورسعيد ولم تطمرها الرمال بعد . وكنا نعتبرها علامة نشرق بعدها . درنا حول الحفرة ومضينا شرقا تغوص اقدامنا فى كثبان الرمال المتدرجة الارتفاع التى تنبت فيها صبارات قصيرة أوراقها صلبة وتنبثق وسطها على مسافات متباعدة حشائش طويلة خشنة ومفاجئة تشبه المراوح . وكنا فى سيرنا نتجنب هذه الصبارات والحشائش التى نعلم ان الثعابين تلبد تحتها . صعدنا الكثبان فبدت قمم النخيل والسعف الأخضر المتعانق . وكلما ارتفعنا أخذت الأطراف العليا للجذوع السامقة السمراء تستطيل فى اتجاه الارض الى أن تنبسط الأرض امام عيوننا فجأة فتبدو غابة النخيل وكأن جذوعها تميل على بعض وتتقاطع مع بعض ويرسم سعفها فى الأفق أقواسا خضراء متشققة ومتعاقبة تتوهج أطرافها المذهبة بنور الشمس . وكلما اقتربنا من غابة النخيل بدأت اشجارها المتفرقة تتضح وتتميز . لم تعد تتقاطع وتتشابك بل بدت على حقيقتها ، نخلات متفرقة على مسافات شبه منتظمة ، بهوا من الأعمدة الليفية الخشنة تلقى فى الهجير ظلا رطبا من سعفها العالى الذى يحتضن سباطات البلح الأخضر الجديد وقد احمرت أطرافه فبدت كحلمات صغيرة متجاورة . وحاولت ان أتحدث الى حسين ونحن نجتاز النخيل . أردت أن اقترح

عليه ان نجلس قليلا لنستريح ، لكنه كان صامتا ومتجهما فآثرت السكوت . أخذت أشغل نفسى محاولا ان أخمن ما سوف يقول . سيكا منى بالطبع عن فريدة وعن زواجهما المتعثر فبم يمكن ان أرد ؟ لكن حسين فاجأنى حين توقف فجأة امام نخلتين تنبتان من أصل واحد وتفترقان قليلا ثم تنتصبان متوازيتين وقال أترى هاتين النخلتين ؟ توقفت وأسندت ظهرى الى احداهما لأستريح دون ان أبالى بخشونة الليف وقلت رأيتهما آلاف المرات وكذلك أنت . ماذا فيهما ؟ اجلس قليلا لنستريح . وانزلقت على الرمال الساخنة دون ان انتظره ، لكنه ظل واقفا يحدق فى الفراغ بين النخلتين وقال دون أن ينظر فى وجهى سأحكى لك حكاية لم أحكها لأحد من قبل . حكاية حدثت هنا ، وكنت وقتها طفلا . فى السابعة أو الثامنة من عمرى . كان أبى يشتغل فى الحديقة وأرسلتنى أمى عليها رحمة الله لأقول له شيئا لم أعد أذكره . وكنت دائما أفرح بأن أقطع هذا المشوار للحديقة وبأن أمر وسط النخيل وأحاول ان اتسلقه بعيدا عن عين أبى . وفى ذلك اليوم بينما أمر وسط النخل برز لى من بين هاتين النخلتين عفريت . لا، تضحك يا ابن عمى . هكذا ظننت وقتها وصرخت وكدت أموت من الخوف . نعم ، لم يكن عفريتا بالطبع ولكنه كان راعيا من البشارية الذين يظهرون أحيانا على أطراف بلدتنا بخرافهم الهزيلة ، ولم أكن قد رأيت أحدا منهم من قبل . كان مثلهم ، أسود ، واسع العينين ، شعره مهوش ومرتفع فوق رأسه يتدلى فى ضفائر كثيرة لامعة على كتفيه . وكان عاريا الا من خرقة حول وسطه ، وعلى صدره عقد كبير وبيده عصا . صرخت حين رأيته كما قلت لك وتسمرت مكانى . كان وجهه وجسمه كله يلمع بالعرق وهو يستند الى النخلة وحين رآنى مد لى يده بكوز من الصفيح وقال لى يا ولد . وما أن سمعت صوته ورأيته يحدق فىّ بعينيه المحمرتين حتى جريت مناديا أبى . وخرج البشارى من بين النخلتين من بين هاتين النخلتين مشيرا الىّ بعصاه وقال مرة اخرى يا ولد فأيقنت انه سيضربنى أو سيقتلنى وجريت بسرعة هاربا من الموت . جرى البشارى ورائى وأنا اسمع كلمته الوحيدة يا ولد يا ولد وكلمات أخرى لم أفهمها وحين اقتربت من الحديقة انقطع صوته فتلفت خلفى

دون ان أتوقف عن الجرى ووجدته يرقد على بطنه وعصاه ملقاة امامه على الرمل . وعندما دخلت الحديقة على أبى رمى بالفأس التى كانت فى يده وأخذنى فى حضنه وقال ولدى ماذا حدث ؟ ماذا جرى لك ؟ فأخذت أشير للخارج وأنا أقول العفريت العفريت . وحاول أبى ان يهدئنى وسقانى شيئا من الماء وقال لى انتظر هنا ولا تتحرك والتقط فأسه وخرج . ولكن حين عاد أبى كان فى وجهه غضب وكان يمسك بيده كوز الصفيح الذى مده البشارى لى وقال لى بلهجة آمرة املأ هذا الكوز بالماء . ولما ملأته قال تعال معى . بداعلىّ التردد فأمسكنى أبى من كتفى وقال بصوت خفيض كأنه لا يخاطبنى ستأتى معى يا حسين وستسقى الرجل البشارى المريض بنفسك . اما ان يكون ابنى رجلا والا فلا أريد أولادا . وكان فى لهجته ونظرته ما فهمت منه على صغرى أنى لو خالفته فان شيئا مخيفا سيحدث . أمسكنى من يدى بقوة وخرجت معه والكوز يهتز فى يدى المرتعشة من الخوف . وكان الرجل البشارى لا يزال ممددا على الرمل . فجلس أبى وأسند رأس الرجل لى صدره ثم تطلع الىّ وأنا أرتعش وقال بهدوء يا حسين اسق الرجل . فملت ووضعت الكوز فى فمه .

صمت حسين وكان لا يزال واقفا وهو يروى قصته . وحلقت فوق النخل طائرة تزعق وتجر وراءها دخانا أبيض ، ثم علت فى السماء وصغرت وخفت أزيزها . وقلت لحسين بعد فترة فى دهشة ــ وكيف حدث أنك لم ترو لى هذه القصة طول هذه السنين ؟ فالتفت نحوى مبتسما وقال ــ أمرنى أبى ألا أحكيها لأحد . وفهمت ، رغم أنى كنت طفلا . هيا بنا .

نهضت وسرنا معا . عبرنا النخل وبدا من بعيد السور الرمادى للحديقة المكسو بالطين .. ولم يكن سطحه الخارجى مستويا بل كان منبعجا فى أجزاء كثيرة تملأه تشققات متعرجة تمتد بعرضه . لم يكن سورا يستعصى على أى انسان يحاول أن يتسلقه وكان القصد منه مجرد منع الحيوانات من التسلل للحديقة .

فتح حسين الباب الخشبى العتيق بمفتاحه الضخم الذى كان معلقا فيما يشبه

الحبل حول عنقه ، فثار غبار وراء الباب . وواجهتنى فى المدخل شجرة الموز بأوراقها العريضة الخضراء وقد تهدل على الجانبين منها ورقتان مصفرتان كذراعين يتأهبان للاحتضان . واجتزنا صفوف شجيرات البرتقال القصيرة وشجر التين الذى كان يلقى ظلا مرقطا بالشمس على الأرض ، وشجر الجوافة النحيل الذى كانت رائحته المعطرة تملأ المكان . وذهبنا للمكان الذى اعتدنا ان نجلس فيه ونتسامر منذ كنا صغارا . تحت كرمة العنب الخشبية حيث كان الظل رطبا وضوء النهار القاسى ينفذ من خلال الكرمة نورا هادئا .

جلست على الأرض مستندا على احدى دعائم الكرمة الخشبية بينما جلس حسين أمامى على حجر عال مسحه بيده جيدا قبل ان يجلس عليه . كانت هذه الكرمة مخبأنا وملاذنا . هنا هربت عندما تزوجت منيرة ، وهنا كنا نأتى ونجلس نتبادل أنا وحسين الحكايات بالساعات . لكنى كنت أعرف ان هذه المرة تختلف . ان حسين هنا ليحاكمنى أنا وأبى من على حجره المرتفع وانه ليس لدى ما اقوله حين يبدأ محاكمته لى . قلت لنفسى الآن سيبدأ وتحاشيت النظر فى عينيه وانتظرت ، ولكن مرة أخرى فاجأنى حسين حين قال لى :

ـــ أتذكر ما قلته لى هنا فى العام الماضى عن ليلى ؟

تطلعت له مندهشا وقلت ـــ أى شيء تعنى ؟ حكيت لك كثيرا عن ليلى . لا أخفى عنك شيئا أبدا ، ولا انت تخفى عنى شيئا . فما الذى ذكرك الآن بليلى ؟

قال ـــ اريدك ان تحكى لى كل شيء كما حكيته لى من قبل .

حدقت فى وجهه وكان هو الذى يتحاشى النظر فى عينى الآن وقلت له ـــ ليس هذا هو الموضوع المهم الذى مشينا من أجله كل المسافة إلى هنا . ماذا تريد حقا يا حسين ؟

نظر الى وقال ـــ لا شيء . سمعت انك مسافر غدا . قلت نتسامر كما كنا نفعل من قبل عندما كانت قلوبنا خالية . احك لى .

كان يميل الآن مقوساً ظهره وهو يشبك يديه مثبتا نظره عليّ وقال فى تصميم وحبات من العرق تطفر من جبهته ـــ احك كل شيء . كما حكيته من قبل . هذا هو ما أريد .

وبدأت أحكى له متعثرا . أحكى القصة التى رويتها له مرارا عندما عدت فى اول اجازة لى من القاهرة . وكنت وقتها عندما أحكى له يقاطعنى مستفسرا عن التفاصيل ويعتب على اذا تذكرت شيئا لم أقصه عليه من قبل . ويفرح ويقوم ويصفق ان حكيت له شيئا أسعدنى ويحزن لما أحزننى . أما الآن فقد ظل صامتا يتابعنى ويستحثنى بعينيه اذا سكت ولكنه لا يعلق بشيء . وبدأت من البداية كما أراد . كيف كنت وحيدا عندما تركت البلد الى القاهرة . لم يكن لى فيها اصدقاء وكنت أخجل من الحديث مع زملائى الذين لا اعرفهم فى الكلية . كان الأولاد والبنات يقفون فى مجموعات قبل المحاضرات وبعدها يتكلمون ويضحكون ، لكنى كنت أجلس مكانى فى آخر المدرج أتظاهر أنى أقرأ شيئا لأخفى خجلى ووحدتى . وكنت اذهب للمكتبه بعد ان تنتهى المحاضرات وأقرأ كثيرا وقد اخترت فيها ايضا ركنا بعيدا . وذات يوم جاءت ليلى وجلست بجوارى فى المدرج . كنت أراها فى المحاضرات ، تجذبنى عيناها الخضراوان وبسمتها المرحة . لكنى لم أكن أتأملها الا اذا أدارت وجهها بعيدا عني . كنت حريصا على ألا ترانى وأنا انظر اليها . وفى ذلك اليوم كانت عندنا محاضرة بعد الظهر وجلست فى مكانى المألوف وكان المدرج مزدحما والمكان الذى تجلس فيه ليلى عادة مشغولا فجاءت وجلست بجوارى وحيتنى وخاطبتنى باسمى وكأنها تعرفنى من زمن . رددت عليها متلعثما ثم لم أنظر اليها لكنى لم أفهم كلمة من المحاضرة . وبعد المحاضرة بدأت تكلمنى ونحن فى طريق الخروج . سرنا معا حتى باب الجامعة ، وكنا فى الغروب ، ولما أردت ان اودعها وأتركها عند باب الجامعة سألتنى عن طريقى . قلت لها انى سأعبر كوبرى

الجامعة وأمشى حتى المنيرة فقالت ولكن هذا هو طريقى وسرنا معاً . كانت طول الطريق تتحدث وتضحك وهى تقلد طريقة الأساتذة فى المحاضرات . الدكتور الذى ترق لهجته ويتهلل وجهه حين تخاطبه البنات ويتجهم ويفقد اعصابه حين يسأله الطلبة . والدكتور الذى يمثل وهو يلقى المحاضرات ويصرخ ويشوح بيديه ، ودائما ما ترتطم يده أثناء ذلك بالحائط أو السبورة فيظل يهزها متألما ولكنه يعود للتشويح من جديد . وكانت ليلى تقلده وترفع صوتها وتشوح ونحن نعبر كوبرى الجامعة فارتطمت يدها بالفعل بالسور الحديدى للكوبرى وأخذت تهزها وهى تتأوه وتضحك وتقول ذنب الدكتور . وكنت انا ايضا اضحك معها لكنى كنت مرتبكا وأنا أمشى مع فتاة من القاهرة لأول مرة فى حياتى ولا أعرف كيف أرد عليها . وتظاهرت ليلى انها لا تلاحظ ارتباكى . وقالت انها ترى انى اقرأ كثيرا وأننى فى الغالب طالب صمام وتتنبأ لى انى سأكون معيدا فى الجامعة أما هى فلا تريد الا الستر والنجاح . وحين تركتنى بعد الكوبرى لبيتها فى الروضة سرت فى الشوارع ساعات فرحا ومنفعلا . أقول لنفسى أخيرا أصبحت لى صديقة ، أخيرا لى صديقة فى مصر ، واسترجع حديثها وتخطر على بالى اجابات ظريفة كان يمكن ان تجعلها تضحك وتجدنى ذكيا ولكن بعد فوات الأوان . وأغضب من نفسى لأنى كنت غبيا وأقول لن تكلمنى بعد ذلك .

لكنها فى صباح اليوم التالى جاءت وجلست بجانبى فى المدرج مبتسمة كعادتها وهمست فى أذنى انها ستعلمنى الثرثرة لكى لا اكون طالبا صماما .

وعلمتنى ليلى . علمتنى كيف أخرج من أسر نفسى وكيف اتكلم وأصادق وأدخل فى مجموعات الطلبة والطالبات دون أن أخجل من نفسى ومن لهجتى ومن قرويتى . كانت ليلى دائما معى . وكانت ترانى دائما أفضل من الباقين وأنضج منهم وتقنعنى بذلك دون ان تقوله . لكنها لم تعلمنى كيف أحبها . كنت قد أحببتها من أول يوم سرنا فيه معا بل ومن قبل ان تحدثنى فى ذلك اليوم الأول وكانت هى تعرف ذلك .

وذات يوم قالت لى فى الكلية ماما تريد ان تراك حدثتها عنك كثيرا وهى تريد ان تراك فقلت لها ولكنى لا استطيع ان اخطبك الا إذا قُلت لأبى .

ظلت تنظر لى لفترة صامتة دون فهم ثم فجأة قالت نعم ؟ تخطبنى ؟ وبدأت تضحك وهى تخبط قدمها فى الأرض وترتج من شدة الضحك حتى سقطت الكتب من يدها وقالت لا تخف يا صعيدى . والله ماما ست طيبة . وحين ذهبت الى بيتها فى الموعد اكتشفت انه عيد ميلادها وأنها دعت كثيرا من الزملاء والزميلات . قدمتنى لأمها . قالت بعد أن دخلت أنت الوحيد هنا الذى لا تعرف ماما . تعال أعرفك عليها . وأخذتنى الى غرفة المائدة حيث كانت أمها مشغولة باعداد أطباق من الحلوى . كان الشبه بينهما كبيرا ، لكن ليلى كانت أجمل بكثير وفى تلك الليلة كانت أجمل من كل يوم . كانت تلبس فستانا أخضر بلون عينيها وتحيط عنقها بعقد من اللؤلؤ الأبيض وعيناها تتألقان. وحين قدمتنى لأمها همست فى أذنها هذا هو يا ماما . فشدت الأم على يدى بقوة والتفتت خلفها تخاطب شخصا وهميا وتقول له بحزم يا ولد هات المأذون بسرعة . ثم ضحكت هى وليلى ، وضحكت أنا أيضا . وسألتنى عندكم فى البلد لا يمكن ان يزور الواحد واحدة الا ان كان سيتزوجها ؟ فقلت نعم وملأنى الخجل . فضحكت وقالت ، كما قالت لك ليلى ، لا تخف ، هنا نحن متهاودون . لكن ليلى قالت هيا . كفى . وبدلا من ان نعود للصالة حيث كان بقية الزملاء خرجنا لشرفة واسعة تحتها النيل يلمع سواده فى الليل . وقالت لى أرأيت ؟ كل الناس جاءوا ومعهم هدايا لعيد ميلادى . أين هديتك ؟

كانت تضحك كعادتها ولكن كلماتها كانت متقطعة وانفاسها لاهثة وكأنها تعدو . قلت لم أكن أعرف انه عيد ميلادك . فقالت فى همس وهى تقترب منى أنت هديتك كلمة ، قلها . قلت أحبك ، قالت لم أسمع . قلت أحبك . ومددت يدى وامسكت كتفيها وقبلتها فى جبينها وارتكزت ليلى على ذراعى وهى تسند وجهها على رقبتى وجسمها يثقل بين يدى حتى شعرت أنى أحملها لكى لا تقع ولكنها تمالكت نفسها بسرعة وقالت يجب ان نعود فورا حتى لايلاحظ أحد

شيئا . ولكنها عند باب الشرفة قالت لى وقد عادت لطبيعتها، ليلى التى كانت أيامها ، أرأيت ؟ أنا ساحرة . حتى الحجر أجعله ينطق . ثم بعد خطوة وقفت وتطلعت الىّ بعينين لامعتين ووجه متورد وهى تبتعد عنى قليلا وقالت فى همس من أنت ؟ ولم أحببتك ؟

وعندما وصلت فى قصتى الى هذا الحد كنت قد نسيت حسين فسكت ونكست رأسى فى الأرض يملأنى الحنين لليلى والحب لها ، لكن صوت حسين نبهنى وهو يقول :

ـــ وبعد ؟ أكمل .

لم أرفع رأسى اليه فقال ـــ أكمل . وبعد ؟ عندما مشيت مع البنت التى اسمها ماجدة وغارت ليلى وغضبت وتخاصمتما ثم تصالحتما . أكمل .

قلت ـــ لا . أنت تعرف كل شىء .. لم أعد أريد ان أحكى .

قال ـــ هل أحببت ماجدة ؟

قلت ـــ لا ، ولا هى أحبتنى . ماجدة كانت تغار من ليلى فقط . كانت تريد ان تثبت لها انها تستطيع ان تأخذ منها من تحب .

قال حسين ـــ وكيف سمحت لها بذلك ؟ كيف استطعت ان تنظر لواحدة اخرى وانت تحب ليلى ؟

لم أرد عليه فقال ـــ والآن تشتاق لليلى ؟

هززت رأسى فقال ـــ ولهذا تريد ان تسافر غدا ؟

قلت ـــ انتهت الاجازة . لابد ان أعود للجامعة .

قال بصوت خافت ــ أنا أيضا أحب فريدة وأشتاق اليها . لكنى لا استطيع ان احكى مثلك .

ــ تخجـــل ؟

ــ لا ، لا أخجل منك أنت . لكنى لا أعرف . فريدة تشبه ليلى كما تحكى لى عنها . عندما ترانى تقول كلاما تغيظنى به وتسخر منى كما كنا نفعل ونحن أطفال .

وكنت أنا أعرف ذلك . أرى فريدة كثيرا وهى تقف فى صحن البيت تخفى نصف وجهها الأسفل بطرحتها حين تكلم حسين وكلما قال شيئا تجعل منه نكته . وكانت قامته الفارعة الجميلة مثل أبيه وجده موضوعها المفضل . فى آخر مرة كان عندنا قبل ان يحدث ماحدث قالت لها أمى اصعدى يافريدة الى السطح وهاتى الشىء الفلانى . فقالت فريدة أنا مشغولة يا أمى . اعمل معروفا يا ابن عمى مد يدك وناولنا اياه من فوق السطح . فضحكت انا وقالت أمى عيب يا بنت . عيب يا مكشوفة الوجه . فازداد ارتباك حسين وازداد ضحك فريدة . وابتسمت حين تذكرت هذا وقلت له ــ ولكن فريدة تحبك .

فقال ــ ربما . لا أعرف ولكن أنا ايضا لا استطيع ان اقول لها كلاما جميلا مثل كلامك لليلى . لا استطيع أن اجعلها تعرف كيف أحبها .

فقلت ــ صدقنى انها تحبك وانها تعرف انك تحبها . لا يحتاج هذا الى كلام . ليلى قالت لى انها عرفت انى أحبها من قبل ان اقول لها كلمة . منذ كنت أنظر لها من مكانى البعيد فى آخر المدرج وأظن انها لا ترانى .

رفع حسين رأسه وقال وعيناه تلمعان ــ لا . لن تعرف أبدا كيف أحبها . أنا أحببت فريدة منذ كنا طفلين . منذ ان تشاجر أبى وأبوك ولم أعد أزوركم أو أرى فريدة أو أسمع صوتها لم تعد الدنيا هى الدنيا . كل شىء أصبح ماسخا .

أتذكر عندما تزوجت منيرة وهربت أنت هنا ؟ بكيت أنا . تصورت أنك قتلت نفسك . وحين بحثوا عنك ولم يجدوك جئت انا الى هنا أجرى فى عتمة الليل وطاردتنى كلاب ونهشت رجلى . تصورت انى سأجدك ميتا . تصورت لو ان إنسانا تزوج فريدة . أقسم أنى اقتلها وأقتله وأقتل نفسى . لو حدث ذلك بالأمس لفعلته بالأمس ولو حدث غدا لفعلته غدا . ولكنها لن تعرف كيف أحبها . انتهى كل شيء . كنا سنتزوج هذا الصيف وأكملت بناء الحجرتين والآن انتهى كل شيء .

كان عنفه يزداد وهو يتكلم منكساً رأسه وينكث الأرض بشدة بفرع من الشجر حتى انقصف فى يده فقلت له ــ وما الداعى لهذا كله ؟ فريدة لك طال الزمن أو قصر . وهذا الخلاف بين أبى وأبيك لا علاقة له بزواجك من فريدة .

قال ــ كيف ؟ وهذه المصيبة التى نحن فيها ؟ هذه الحديقة التى يريدون أن يأخذوها ظلما ؟ والقطيعة التى بين أبى وأبيك ؟ عرس وسط هذه المصيبة ؟

ــ اذن ما العمل ؟

ــ أنا أسألك يا ابن عمى ما العمل ؟ عندما تزوجت منيرة وفكرت ان تهرب نويت أنا ايضا ان أهرب معك . كنت صادقا . الآن لا ينفع الهرب يا ابن العم . قل لى ما العمل . أنت متعلم ومتنور وتفهم الدنيا أحسنَ منى . قل لى ما العمل .

ــ انت تعرف أبى . لا يحوله شيء عما فى رأسه ، ولا يعترف أبدا أنه أخطأ . سيقول ان أخاه الأصغر أساء فى حقه وهو فى مقام والده ويجب ان يأتى ليعتذر له . هذا ان سمح لى أصلا بأن أكلمه فى الموضوع . ان لم يقل لى أخرس يا ولد لا تتدخل فيما لايعنيك . أنت تعرف عمك . لا فائدة .

قال حسين مشيحا بيده ــ دعنا من هذا الآن . لن ينصلح ما بين أبى وأبيك حتى نحل مشكلة الأرض. أولاد الحاج صادق يركبون رأسهم. العوضى أو صادق يركب رأسه ويقول ان الارض أرضه وسيأخذها . وأبى يقول لو مد أحد يده لفرع شجرة فسيقطع يده . كلام الدم فى كل مكان والناس ، كأنه مولد ، ينقلون ما يقوله العوضى وينقلون ما يقوله أبى وكأنهم يتعجلون العراك والفرجة . والحكاية جد . العوضى أكثر أولاد الحاج صادق شرا وأكثرهم افلاسا . أرضه كلها مرهونة عند أبيك . سامحنى ولكن لا وقت للمجاملة . الحكاية جد فما العمل ؟

قلت بصوت خافت ــ قلنا انه لا فائدة من أبى فلننس ذلك . ولن يغير ابوك رأيه ومعه حق . فهل نستطيع شيئا بمفردنا ؟ هل نستطيع شيئا أنا وأنت ؟

قمت من مكانى وأخذت أمشى تحت التكعيبة وقد بدأت تتكون فى رأسى فكرة غير محددة، وقلت ــ أنت وأنا ياحسين نعرف ان المسألة ليست فى قطعة الارض ذاتها . هذه الحديقة كم تساوى لارض العوضى ؟ عنده مائة فدان أو أكثر فما قيمتها له ؟ وكم تساوى عند أبيك ؟ فاكهته نأكلها نحن أو يهديها للجيران فى كل موسم ..

قاطعنى ــ ولكن لا تنس ان الارض حق أبى وأبى لا يفرط فى حقه ...
فقاطعته بدورى ــ نعم والعوضى يريد ان يأخذ الأرض ليثبت انه ان كان فاشلا ومفلسا فهو ما زال سيد البلد وكلمته هى التى تمشى ..

فهز حسين رأسه وقال ــ لا ، سامحنى مرة ثانية . يريد ان يأخذها لينتقم لنفسه . لم يستطع ان ينتقم من أبيك الذى يرقد على الكمبيالات فأراد ان ينتقم من أخيه . اما هو فاخوته كلهم معه . أولاد الحاج صادق دائما يتشاجرون مع بعضهم ولكنهم يد واحدة على غيرهم .

ـــ ليكن . المهم الآن أننا نعرف ان العوضى لا يريد الأرض لمجرد الأرض . فماذا لو أرضيناه لنحل المشكلة ؟

ـــ كيف ؟

ـــ هل معك مال ؟ (وقلت وانا اضحك) تعرف ان ابى لا يعطينى مالا وأنى لا أملك شيئا . ولكن انت هل معك شيء ؟

ـــ ن م ، معى . ادخرت شيئا للفرح هذا الصيف ، ولكن ما علاقة هذا بما نحن فيه ؟ هل ستعطى العوضى نقودا ليسكت ؟ هذا مستحيل .

وضعت يدى على كتفه وقلت ـــ لا ، ليس بالضبط . استمع للحل الذى عندى . سأذهب لأولاد الحاج صادق واقول لهم اننا لو تركنا الأمر للمحكمة فسيظل الامر سنين وسنين وسنخسر بعضنا والأفضل ان نتفاهم . سأقول للعوضى فلنفترض ان الارض أرضه وأننا نريد ان نشتريها كجيران وأصحاب ، وسندفع الثمن الذى يريد ، ما قولك فى هذا ؟

كان حسين يتطلع الىّ ويتابع كلامى الى ان تحدثت عن شراء الارض فأبعد يدى عن كتفه ووقف بجوارى صامتا . وسكت أنا أيضا . كانت نسمة خفيفة تحرك أوراق العنب التى تعلو التكعيبة فتنفرج عن شمس تغمر وجه حسين ثم تختفى . لكنى رأيت وجهه يمتقع فجأة ثم التفت الىّ بعينيه الواسعتين ووجهه الشاحب وقال :

ـــ أهذا هو ما فكرت فيه ؟

قلت مرتبكا وقد شعرت أنى أغضبته دون ان أدرى ـــ نعم ، هل عندك شيء أحسن ؟ ظل مثبتا عينيه فى وجهى وقال ـــ هل عندك انت شيء أحسن ؟

ـــ لا .

فأدار ظهره وقال ـــ اذن افعل ما بدا لك .

ثم خرج من التكعيبة مسرعا واتجه نحو باب الحديقة فجريت خلفه وناديته وقلت ـــ ولكن لايجب ان يعرف عمى شيئا عن الموضوع قبل أن يتم .

استدار نحوى وقال وهو يضحك ضحكة صغيرة ـــ ان عرف عمك شيئا عن الموضوع قبل ان يتم يقتلنى ويقتلك . وحتى لو تم فلا أعرف ماذا سيفعل بنا . ان عملت شيئا فاعمله فى السر .

وعندما وقفنا أمام باب الحديقة قال وهو يقفل بابها الخشبى بمفتاحه الضخم دون ان ينظر فى وجهى ـــ لا تخف . سأدفع ان اتفقت معهم . أنا أفعل ذلك من أجل فريدة لا غير . اذهب الآن وسأنتظرك فى البيت .

وعبرنا النخلات معا يسبقنى بخطوات قليلة وأنا أفكر كيف أحدث أولاد الحاج صادق وأرتب كلاما فى رأسى ، وعندما وصلنا التل لوح لى بيده وعاد من حيث أتينا يضم جلبابه ويصعد وقد أحنى ظهره قليلا والرمال تتساقط من مواضع قدميه على التل وقد ارتمى خلفه ظل طويل حتى اختفى . وسرت أنا يمينا قاصدا الديوان فى بيت الحاج صادق . كان الديوان مبنى مستطيلا من الطرب الأحمر يواجه البيت الكبير ، وعندما دخلت وجدت معظمهم هناك . كانوا يجلسون على دكك خشبية عالية وكراسى بعضها مغطاة بالوسائد القديمة أو فراء الخراف يتكلمون بصوت عال ويضحكون وهم يشربون الشاى . كان هناك الحاج جاسر أكبر أولاد الحاج صادق الأحياء ورأس الديوان ، والعوضى ، وبعض ازواج بنات الحاج صادق وأحفاده . وحين دخلت بدت عليهم الدهشة وقاموا يرحبون بى باحترام زائد أهلا بالاستاذ . أهلا أبو الشيخ .. أهلا بابن سيدنا . ولم يفتنى ما

فى هذا الترحيب المبالغ فيه من تعال وسخرية . فهم أسياد البلد منذ زمن بعيد ، أما جدى فقد صنع نفسه بجهده وفرض أبى وعمى نفسيهما كل بطريقته . ولكن أولاد الحاج صادق ما زالوا يرفضون ذلك فى اعماق نفوسهم . ورفضهم لى أشد لأنى لم أعد واحدا منهم . لا يشفع لى أنى أخلع بذلتى وألبس الجلباب حين انزل البلد . فقد تغيرت لهجتى وصرت واحدا من أهل مصر الذين يأتون للتدريس والتطبيب ومساحة الارض . الذين لا غنى عنهم ويعاملون باحترام زائد لكنهم يظلون غرباء ومبعدين مع ذلك . وأصروا فى ترحيبهم الزائد بى على أن أجلس على مقعد مبطن له مساند فى ركن من الديوان وسط مقاعد مشابهة تغطيها كسوة من قماش مشجر ، وتتوسطها منضدة خشبية صغيرة منقوشة بدوائر وبقع سوداء صغيرة من أثر أكواب الشاى وأعقاب السنجائر . وجلس الحاج جاسر بجانبى ، ولكنى صرت بذلك بعيدا عن المجلس الذى يضمهم وأصبحت عيونهم جميعا تحاصرنى فى استفهام . وكان على أن أبذل جهدا مضاعفا للاقتراب منهم . قلت لهم كل ما أعرفه . تحدثت عن الصداقة القديمة التى ربطت بين جدى وبين الحاج صادق . كيف كانا كفارسين يحرس كل منهما أرض أخيه ويساعده . وتحدثت عن كرم الحاج صادق الذى تتوارث البلد كيف حمل للناس جميعا طعامهم فى الجبل يوم السيل الكبير . وقلت اننا عشنا فى البلد جميعا آباء وجدودا جيرانا طيبين لم يدخل بيننا الشر ولا يجب ان يدخل بيننا الشر . وحين بدأ بعضهم يؤمن على ما اقول بفتور كنوع من المجاملة قلت اننى لهذا جئت كجار لكى نحل مشكلة ارض الحديقة .

تطلعوا الى جميعا باهتمام ولمعت عينا الحاج جاسر وهو يميل فى مقعده نحوى . قلت انه قد يكون معهم حق فى ان الأرض أرضهم لأن الجدود لم يهتموا بوضع الحدود بين ملك وملك وقد كانوا يعيشون كأخوة . ولكن عمى ايضا معه أوراق ويعتقد أن الأرض حقه . وهو تربى يزرع الحديقة ويجمع ثمارها وينام فيها ويقوم فيها ، فكيف يترك أرضا اشتغل فيها طول عمره ؟ ومع ذلك فيجب ان يأخذ كل صاحب حق حقه . فماذا لو اشترينا الأرض بدلا من المحكمة وبدلا من

العراك ؟ تبادلوا النظرات جميعا وشعرت انه قد بدا فى وجوههم بجانب الدهشة نوع من الراحة والترحيب بفرصة الخلاص من هذه المشكلة . لكن العوضى أطولهم قامة وكانت رأسه تشب فوق اكتافهم جميعا على دكته العالية انحنى قليلا وزر عينيه وهو ينظر الى وقال :

ـــ كلامك جميل يا أبو الشيخ . متعلم وابن أصل . هل كلفك عمك بهذا الكلام ؟ ترددت قليلا ثم قلت ـــ أنا أنوب عن عمى .

فقال بنفس لهجته العادية ـــ انت سيد الناس يا افندى . وابوك سيد الناس ... لكزه زوج اخته السمين (زكريا) الذى كان يجلس بجواره وكان معروفا ببلاهته وقال له فى همس ظن أنى لا أسمعه :

ـــ سيّما أبوه يامقصوف الرقبة !

التفت له العوضى مبتسما وزجره لمقاطعة الكلام كنوع من الاعتذار لى ثم قال :

ولكن يا أستاذ اذا كان الاصل موجودا فلماذا ينوب عنه وكيل ؟ فرضنا وبعنا من الذى سيوقع عقد البيع ؟ المشترى أو الوكيل ؟

ولم أكن قد أعددت نفسى لهذه الحجج وكان العوضى يثبت على عينيه الضيقتين وهو يحنى ظهره وابتسامة لا معنى لها على شفتيه فقلت له :

ـــ أنا الذى سأشترى الأرض . سأشتريها لنفسى وأوقع أنا على العقد .

تراجع العوضى للخلف وهو يضحك ويقول ـــ لا ، لا . وتفوت مدرستك يا استاذ ؟ تفوت مدرستك وتفوت مصر وتقعد للأرض وهّم الأرض تشترى وتبيع وتزرع وتقلع ؟ يا للخسارة !

عاد زكريا لهمسة المسموع فى اذن العوضى وقال له ـــ مصيبة يا عوضى يكون الابن كالأب . نحن لا نقدر على واحد فكيف لو بدأ الآخر يشترى ؟

لكن الحاج جاسر شعر أنى أسمع وأراد ان يغطى على حديث زكريا فقال بلهجة غاضبة ـــ فضها يا عوضى ! .. الأستاذ جاء ليحل الاشكال وانت تفتح معه محضر تحقيق ؟ ما شأنك بما سيفعله ان اشترى الارض ؟ اما ان تبيع أو لا تبيع . ثم التفت لى وقال ـــ لا تغضب يا استاذ . كلامك على العين والراس . نحن ايضا لا نريد ان يدخل بيننا الشر وسنفكر فيما قلت .

لكن العوضى رد على غضبة أخيه بغضبة أكبر وقال وهو يهم بالقيام ـــ كيف يا حاج جاسر ؟ كيف تقول هذا الكلام ؟ أهى ارض وحق أم مسخرة ؟ ماذا يقول الناس عنا فى البلد ؟ أولاد الحاج صادق خافوا وفاتوا حقهم بقروش ؟

وسرت همهمة لم يوقفها الا صوت الحاج جاسر الذى قام وأخذ يلوح بيده غاضبا ويقول بصوت مرتفع ـــ اقفل فمك ياعوضى . اقفل فمك قلت لك . الأستاذ ضيف فى الديوان ووالله لو فتحت فمك بكلمة بعد الآن لأسده أنا .

سكت العوضى عن الكلام وهو يدمدم ووقفت لأخرج بعد ان لم يعد ما يقال ، فأقسم الحاج جاسر ان أبقى لأشرب الشاى ثم خرج يوصلنى مسافة فى الطريق وقال يجاملنى وهو يسير بجانبى ـــ كلامك معقول يا أستاذ . والله كلام معقول . الحق حق كما تقول وأوراقنا جاهزة والحمد لله ، ولكن العقل أحسن من المحاكم أترك لى فرصة وسينتهى كل شىء على خير باذن الله .

قلت له وأنا أعرف الجواب ـــ ولكن أيمكن حقا ان نفعل شيئا بسرعة ؟ غدا سأسافر لمصر ...

فضحك الحاج جاسر وقال ــ بهذه السرعة ؟ لا ، كما قلت لك فى مثل هذه الامور لابد من أخذ ورد مع الجماعة . هذا شيء يطول . سافر انت بسلامة الله والتفت لدروسك . سينتهى كل شيء على خير باذن الله .

وتركنى الحاج جاسر عند أول الجسر بعد ان اقسمت عليه مرارا ان يعود وانه يكفى ان مشى معى كل هذه المسافة .

وقصدت الى بيت عمى حيث كان حسين ينتظر . امام باب البيت وجدت الحصان البنى مربوطا فعرفت ان عمى بالداخل ، وحين اقتربت من الباب أدار الحصان رقبته ونظر لى بعينه الكبيرة وهو يكشف أسنانه الطويلة ويدق حافره فى الأرض محمحما فى غضب وانذار بأن أبتعد عنه . طرقت الباب بخفة ففتح لى حسين الذى وضع يده على فمه محذرا ثم اخذنى الى (بيته) الجديد القائم فى الركن الأيسر من صحن الدار . كان غرفتين مطليتين من الخارج بالجير الابيض ولا شيء داخلهما غير لحافين جديدين مطويين أحدهما أحمر والآخر أصفر ، ثم رائحة الجير الجديد وقطن التنجيد . وكانت هناك فتحة نافذة لم يركب خشبها بعد تظهر منها بقعة مستطيلة من سماء ما قبل الغروب . جلس حسين مقرفصاً على الأرض تحت النافذة مسندا ظهره الى الحائط وجلست بجواره أحكى له ما حدث . وكان يهز رأسه وقد أخذ وجهه الشاحب يحتقن مع كل جملة أقولها ، ولكن عندما انتهيت قال بسرعة وقوة وكأنه سعيد لما حدث ــ كنت أعرف . كنت اعرف ان هذا ما سيحدث ومع ذلك قلت اتركك لترى وتسمع بنفسك . ثم مد يده وامسك ذراعى القريبة منه وقال ــ ورأيت بنفسك فماذا ستفعل ؟

سكت فأعاد سؤاله ملحا ــ ماذا ستفعل ؟

قلت وأنا نفسى غير مقتنع بما أقول ــ لم يبق الا ان ننتظر . أظن أن الحاج جاسر يريد أن يحل المسألة . سأعود كما تعرف فى اجازة نصف السنة فى الشتاء . وربما أعود حتى قبل ذلك . وساعتها ....

ثم استبد بى الغضب فجأة وقلت ــ ماذا استطيع انا وحدى يا حسين ؟ لماذا لا يفعل الكبار شيئا ؟ أخوالك مثلا أو أهل أبى وأبيك ؟ لم يتركون هذه النار تشتعل ولا نسمع منهم شيئا سوى الكلام ؟ لماذا وهم يعرفون ان الحق معنا لا يذهبون الى أولاد الحاج صادق ويقولون انهم يعرفون لمن الأرض وانهم لن يسكتوا ان حاول أحد أن يعتدى على حق أبيك ؟

أشاح حسين برأسه بعيدا عنى وقال ــ عندما يقف الأخ مع أخيه أولا بعدها يأتى دور الأخوال والأعمام .

ثم قام فجأة وقال بصوت عادى ونهائى ــ ستسافر فى قطار الفجر اذن ؟ تعال ؟ سلم على عمك . سأشد العربة وأمر عليك فى الليل لأوصلك للمحطة . عندما تسمع صوت العربة أخرج .

وفى الليل ، فى ذلك الليل ، فى تلك الليلة المظلمة الحارة كنا معا مرة أخرى على الجسر . لم تكن ذبالة مصباح (الحانطور) تكاد تضىء شيئا على الطريق الاسود الطويل ، وكانت السماء مبدورة بنجوم كثيرة كالثقوب الصغيرة ولا قمر ، وعلى البعد انوار خافتة متفرقة ، نجوم كابية أخرى تثقب كتلة المدينة المظلمة المهوشة . ومن بعيد تأتى أصوات نشيج ممتد . نباح كلاب أو عواء ذئاب وضباع ؟ ووقع حوافر الحصان بطيئة منتظمة ، بطيئة منتظمة ، وحسين يمسك اللجام ويقوده بحذر على الطريق المظلم المرتفع . لا يتكلم . كتفى فى كتفه والصمت بيننا سد كالجبل الاسود البعيد الممتد الى يسارى . أفتح فمى لأقول له شيئا ثم أعود وأقفله . ما الفائدة ؟ صدى كلمات أبى الأخيرة فى رأسى . هل اقولها له ؟ ما الفائدة ؟ عندما كنت أعد حقائبى وقف أبى يقول لى نصائحه المعتادة أن أذاكر ، ألا أسرف ، ان اتجنب رفاق السوء فى القاهرة .. ولكنى قطعت حديثه وسألته عما ينوى ان يفعله . عن زواج فريدة وعن خصامه مع

أخيه . كنت أتوقع كيف سيرد وكيف سيتظاهر بالغضب . لكنه فاجأنى حين أحنى رأسه وقال فى حزن ماذا عن فريدة ؟ فريدة لحسين يا ولدى ولن تكون لغيره . أتحسبنى سعيدا ؟ كيف وأخى الذى ليس لى غيره بعيد عنى ؟ كيف وحسين الذى أحبه كولد من صلبى لا يكلمنى ؟ لابد أن أباه ملأ رأسه . وربما يكون ملأ رأسك أيضا . استمع الى يا ولدى . أنت لا تفهمنى ولا أحد يفهمنى . ولكنك صرت رجلا ويجب ان تعرف الحقيقة . فى هذه البلدة . فى هذه البلدة الملعونة ، فى هذه الدنيا الملعونة ، اما ان تأكل الناس واما ان يأكلك الناس . اما ان تخاف من الناس واما ان يخاف منك الناس . أتظن أرض الحديقة هذه مشكلة ؟ لا ، ولكن أولاد الحاج صادق يريدون ان يكسرونا كما أرادوا دائما ان يكسرونا ، وعمك يعطيهم الفرصة ليكسرونا . جربوا ذلك مع جدك من قبل . جربوا معه أكثر من طريقة . أجروا من يحرق زرعه ، ولكن من دفعوا له خاف من جدك . عرف انه سيصل اليه ولو اختبأ فى بطن الارض فجاء واعترف له . ولم يسكت جدك ، قال لهم ان احرقتم لى زرع قيراط أحرقت لكم ارضكم كلها . وكانوا يعرفون انه يقدر . كانت له رهبة . كانت ارض جدك تزيد وخيله تزيد وأنا اتعلم وعمك يفلح ويجتهد مثل أبيه وأولاد الحاج صادق يرهنون ارضهم ويبيعون خيلهم . لكنهم أسياد البلد . بالحيلة . بالحيلة وحدها ان لم نكسرهم فانهم على الاقل لن يستطيعوا كسرنا . افهم ذلك جيدا . لهذا يجب ان تتعلم وان تفلح . لهذا يجب ان يتزوج حسين من فريدة وان نضم ارضنا معا ونزيد عليها . ان ارادوا ارض الحديقة فليأخذوها ، فيم تهم ؟ سنأخذ اكثر منها ومن حر ارضهم . وانما بالعقل . بالعقل والحيلة . قلت لأبى لكن الحديقة أرضه . أرضك انت أيضا . اصلحها جدى من العدم . وعمى لا يريد غيرها وانما يريدها هى . يريدها حتى ولو عادت خرابا كما كانت قبل ان يصلحها أبوه وانت تفهم ذلك .

فقال أبى نعم أفهم . هو العناد ، والشيطان حين يركب الرأس ولم تعد فى الكلام فائدة بعد ذلك . وفكرت أن افتح الحديث مع حسين بأن أحكى له ما قاله عمه عنه وعن فريدة . ان اغفل كل الكلام واقول له عمك قال ان فريدة لن تكون

لغيرك . وفعلت ، لكن حسين لم يرد . لم تستطع كلماتى أن تكسر الصمت فى ذلك الليل الحالك . عاد يلفنا من جديد موقعا بصوت حوافر الحصان المنتظمة ثم فجأة أيضا توقف الحصان فى الطريق . فرقع حسين بالسوط فوق رقبته ولسعه بخفة لكنه لم يزد عن أن شب على ساقيه الخلفيتين وهو يصهل فارتجت العربة مندفعة للخلف وكدنا نسقط على ظهورنا . نزل حسين من العربة وأمسك الحصان من شكيمته وأخذ يربت على رقبته مهدئا لفترة ثم بدأ يشده وهو يسبه لكن الحصان رفض ان يتحرك . ونزلت انا ايضا . كان حسين منحنيا يفحص حوافر الحصان وحين رفع رأسه قال لى ليس به شىء هذا الملعون . عصى ولا يريد أن يتحرك ، هذا كل شىء . وحاولت مع حسين ان نشد الحصان كل من جانب لكنه كان يحنى رقبته ويباعد بين سيقانه منفرجة عن جسمه حين نجره فعرفنا ألا فائدة وعدنا نجلس فى مكاننا على المقعد الجلدى المرتفع . وفجأة قال حسين وهو يضحك ضحكة خشنة ضخمها صمت الليل — أترى ؟ حتى هذا الحصان لا يريدك ان تسافر .

قلت مجاوبا ايضا بضحكة لا روح فيها — أبدا . هو يكرهنى دائما هذا الحصان . وعلى العموم لو عرف ان بقائى كعدمه لما اهتم لسفرى .

فقال حسين وهو يلوح بسوطه مرة أخرى فوق ظهر الحصان العاصى الذى لم يهتز مع ذلك — من يدرى يا ابن العم ؟ ربما لو بقيت .. ربما لو انك بدلا من ان تذهب الى أولاد الحاج صادق لتسترضيهم ... ربما لو ذهبت اليهم وقلت لهم هذه أرضنا وأنا وأبى مع عمى فيها حتى الموت .. ربما لو قلت لأبيك لن أسافر حتى تصالح عمى وحتى تذهب معه الى أولاد الحاج صادق وتدافع عن حق أخيك .. ربما لو عرف كل انسان أننا معا لجاء الأخوال ولجاء الأعمام ووقفوا ايضا معنا ، ربما كان كل شىء ينتهى ، وربما حضرت فرح فريدة قبل ان تسافر . ربما لو وقفنا اربعة معا لصرنا عشرة ولصرنا مائة ولما استطاع أولاد الحاج صادق شيئا ، ربما ....

وسكت حسين . اردت ان اقول له ان هذا الحلم الجميل كان يعنى أولا ان يكون أبى شخصا آخر غير ابى ، وان اكون انا شخصا آخر غير نفسى ، وأن تكون بلدتنا بلدة أخرى وناسها غير الناس ، ولكنى وجدت نفسى اقول :

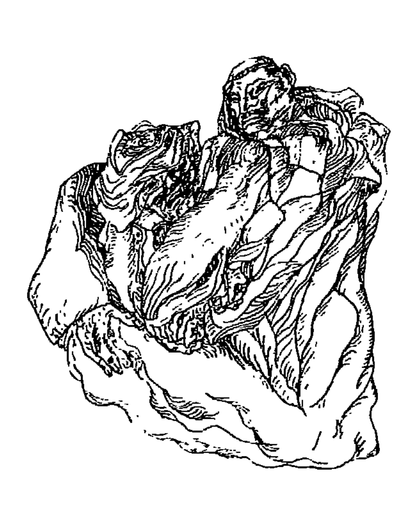
— ومن قال انى لن أحضر فرحك وفريدة ؟ فريدة لك كما قال عمك الليلة . وسأعود قريبا لأحضر فرحك وفريدة وستكون الأرض لنا .. وفى يوم فرحك سأرقص معك بالعصا كما كنا نفعل ونحن صغار . وسيضحك الناس من جهلى بالرقص كما كانوا يضحكون ونحن صغار ... ولم يلتفت الى حسين . كنت أرى جانب وجهه فى الظلام وهو ينظر امامه مستغرقا فى تفكيره . وخيل الىّ انه لا يسمعنى لكنه قال مواصلا بنفس لهجتى :

— نعم يا ابن عمى . تتزوج انت ليلى وأتزوج انا فريدة ويلعب اولادنا معا فى الحديقة كما كنا نلعب ونحن صغار ، من يدرى ؟

وضحك مرة أخرى ضحكته الغريبة فى الليل . وبدأ الحصان يسير من تلقاء نفسه ببطء ولجامه مرخى . وتنهد حسين ثم وقف ممسكا باللجام وفرقع بالسوط فوق رأس الحصان فى الهواء فرفع الحصان رأسه وادارها فيما حوله كأنه كان نائما ثم استيقظ وبدأ يتعرف على الدنيا ثم صهل صهيلا متصلا واندفع للأمام مرة واحدة ، سريعا ونشيطا ، ثم تحول عدوه الى قفزات واسعة عالية عن الأرض ارتجت معها العربة القديمة وتحولت نسمة طارئة فى الليل الى ريح تلفح وجوهنا فتشبثت بحديد المقدمة وطلبت الى حسين ان يوقف الحصان ، لكن حسين كان هو ايضا قد عاد للجلوس وبدأ يواجه صعوبة وهو يمسك باللجام ويحاول ان يحتفظ بتوازنه على مقعده حتى لا يسقط فكان يميل على كل من جنبيه تارة ، مركزا رجله المفرودة فى مقدمة العربة ، عاجزا فى ترنحة عن ان يسيطر على الحصان الذى كان الآن يجرى وشعر رقبته يتطاير وأنا أرى رأسه تشب وتعلو وهو

يجرى فى وثبات سريعة ترتفع به كل مرة عن الأرض وكأنه يريد ان يتخلص من العربة ومنا ومن جسمه نفسه ليطير فوق الارض ، ليمرق كالشهاب فى الأرض وفى السماء ، وأيقنت أننا سنموت ، وانتابنى الدوار ، ورفعت رأسى للسماء ورأيت نجومها ترتج وتختلط وتلد أقمارا وتسقط مطرا فضيا فى الفضاء الأسود وأيقنت انى ميت . لكن فى محطة القطار عانقنى حسين وضمنى بقوة وقال كنت غاضبا منك يا ابن عمى لكني ساحتك ، سامحتك يا ابن عمى . ثم تحولت محطة القطار الصغيرة الى ساحة كبيرة ، الى مرج ترعى فيه خيول كثيرة ووثب من بين الخيول ذئب تقدم منى وشب على ساقيه الخلفيتين مثل الكلب وأسند ساقيه الاماميتين على بطنى وراح يضغط عليها ويتطلع الىّ بفم مفتوح وأنياب مكشوفة دون ان يهاجمنى . لكن حسين ظهر على حصانه وانتشلنى منه وأردفنى خلفه وأدهشنى أن أجد عمى وفريدة وأمى على رقبة الحصان نفسه الذى اندفع للسماء وكان فيها قمر راح يكبر وراح يعمق وراح يفتح فى السماء السوداء سردابا مدورا منيرا نفذ منه الحصان وبدأ يسبح فيه سريعا وخفيفا لكنى وجدت نفسى مرة أخرى وحيدا أمشى على قدمى وتقدم منى رجل عار له ثديان على وسطه خرقة وبيده حربة سددها لبطنى وأصابنى وصرخت ووقف الرجل ايضا فوق رأسى يصرخ صرخة عالية متصلة تمتد الى مالا نهاية .





٣

فتحت عينى فزعا وصفير حاد يخترق أذنى ، واعتدلت بسرعة فى الفراش أحاول أن أفهم . ومن الخارج جاءنى الصوت يتخلله الصفير ، نجرى الآن بعض التجارب ١ ـــ ٢ ـــ ٣ ـــ ٤ ... ثم صفير ممتد آخر . كان النور من الشباك المغلق خافتا ويوحى بأن الساعة الرابعة أو الخامسة . عدت للرقاد وحاولت أن أرتب الأمور فى رأسى . لكن بطنى كانت تؤلمنى وتذكرت أنى لم آكل شيئا منذ الصباح . قمت من الفراش ، وارتحت حين وجدت فى الصالة علبة السجائر على المائدة : هل نسيتها سوزى أو تركتها ؟ المهم انها هنا . فتحت العلبة وأطمأننت لعدد السجائر بها ثم ذهبت للمطبخ . كان هناك باقى الافطار على منضدة صغيرة ، نصف رغيف جاف وقطعة جبن أبيض فى طبق بلاستيك . لكن عندما حاولت أن أمضغ كسرة خبز بالجبن وجدتها تتحرك فى فمى كقطعة من الخشب فاضطررت أن أشرب بعض الماء لأزدرد اللقمة . بللت باقى الرغيف تحت الصنبور ولففته فى فوطة لكى يبوش . عدت الى الصالة وجلست الى المائدة واشعلت

سيجارة . أيمكن ان يكون سمير قد نسى بعض النقود فى غرفته ؟ سأحتاج الى نقود . أحتاج لها الآن . بدأ ذلك الجفاف فى حلقى والنقر الخفيف الذى أعرفه جيدا فى رأسى . لابد أن أشرب . لا تحاول أى مواعظ . لابد أن أشرب قبل أن أنام حتى لا يصبح الليل كالنهار أحلاما وكوابيس وتلك الصور الثابتة التى تتكرر كل يوم ودون أمل أن تختفى . لابد أن أشرب . لا تحاول أى مواعظ ، أن تقرأ كما قالت ليلى ؟ ستقفز لك الصور نفسها من سطور الكتب مهما حاولت . أن تذاكر كما يقول أبوك ؟ لماذا ؟ ذاكرت أو لم أذاكر فسوف أرسب أيضا هذا العام والذى يليه والذى يليه . وأين ستكون ليلى وقتها ؟ ستشتغل وستتزوج وتنجب . وحين تذكرنى ستلعننى . معها حق . ليتنى لم أذهب للكلية اليوم . ليتنى لم أرها . تركتنى وهى حزينة . ماذا كان يجب ان اقول غير ما قلت ؟ لا فائدة الآن . لا تحاول أى مواعظ . فكر فيما يفيد : هل يوجد أدنى أمل فى أن يكون سمير قد ترك نقودا فى غرفته ؟ هل حدث ذلك من قبل ؟ لا أذكر . وهل تعتبر هذه سرقة ؟ سأقول له بالطبع انى أخذت النقود . ولكن متى ؟ نحن لم نعد نلتقى الا اذا أيقظنى فى الصباح ليقول لى شيئا قبل أن يخرج وغالبا ما أنسى ما قاله . ولكنا ذات يوم كنا صديقين . منذ ثلاث سنوات أو ربما أكثر . كنا فى كل صباح نفكر فيما سنأكله ونشترك معا فى اعداد الوجبات ثم نخرج للكلية معا وفى المساء نستقبل الاصدقاء . ولكنا تباعدنا . تباعدت أنا بعد ان رسبت أول مرة . لم نعد نذهب الى نفس المحاضرات ثم لم أعد أذهب لأى محاضرات . وبالتدريج توقفنا عن صنع الوجبات فى البيت وتحولنا الى مجرد زميلى سكن .

فى بعض الأحيان ، فى البداية ، كان سمير أيضا ينصحنى أن أكف عن الشرب وأن أذهب للكلية وأذاكر . لكنه لم يعد يفعل ذلك منذ زمن . أصحيح أنه بدأ يعمل بالسياسة ؟ عندما عرفته لم يكن يهتم بشىء أبدا غير البنات . يروى بسعادة مغامراته مع سوزى وصاحباتها ويحفظ نكاتا جنسية لا حصر لها ووصفات مجربة للفحولة . وفى آخر السنة كان يجلب للبيت بعض الزملاء

يلخصون له المحاضرات ويسهر حتى الصباح يذاكر شكسبير وديكنز بصوت عال وهو يتجول فى الشقة بالجلباب حافى القدمين . يسألنى عن ملخص الروايات المقررة ويقرأ منها بضع صفحات متفرقة . وعندما يحين موعد الامتحان تكون عيناه حمراوين محتقنتين من السهر وشعره طويلا مهملا ويقسم انه لم ينجح الا اذا صحح أوراق الشعر الانجليزى عريف الكتاب الذى علمه فى البلد . ومع ذلك فهو لم يرسب سوى مرة واحدة عندما كان حزينا ومريضا بعد موت أمه . ووصل سمير لليسانس كما وصلت ليلى . ولكن متى تغير حقا ان كان قد تغير ؟ وكيف تغير لدرجة أن تخاف عليه سوزى من الاضرابات ؟

أطفأت السيجارة وقمت وفتحت باب غرفة سمير . وفاجأنى منظر الغرفة بمجرد أن فتحتها . أهى هكذا منذ مدة طويلة دون أن ألاحظ شيئا ؟ كانت هناك كتب ومجلات مبعثرة فى كل مكان. أكوام عالية على المكتب وصفوف مرصوصة بجوار الجدران وأخرى تبرز من تحت السرير . تقدمت من المكتب ومددت يدى الى أحد الكتب . ولكن قبل أن أتصفحه وقع بصرى على فرخ كبير مفرود على المكتب نصفه يمتلىء بمربعات ومستطيلات وله عنوان مكتوب بخط كبير متعرج « الكرباج » « مجلة طلابية » . وكانت الكلمات المكتوبة وسط الخانات بعضها بالخط النسخ والبعض الآخر بالرقعة بأقلام زرقاء وخضراء ، والعناوين بأقلام حمراء أو تحتها خط أحمر وكلها بخط سمير الذى كان دائما واضحا وجميلا كنقش مزخرف . وتحركت عينى مع السطور . كان هناك مربع كبير يتوسط الفرخ مكتوباً بحروف كبيرة وعنوانه الأحمر « سين وجيم حول ميونيخ » وتحت العنوان :

« سين : لماذا اهتز الضمير العالمى بهذا العنف لمصرع الرياضيين الاسرائيليين فى ميونيخ وصب لعناته على الفدائيين الفلسطينيين الذين نفذوا عمليتهم (مع أنهم أيضا قد ماتوا ؟) وأين كان هذا الضمير وهذا العنف عندما أغار الطيارون الاسرائيليون الشبان بروح رياضية على الأطفال المصريين فى مدرسة

بحر البقر وقتلوا منهم العشرات ؟ ولماذا كان هذا الضمير نائما عندما هاجم الاسرائيليون الرياضيون قرية دير ياسين الفلسطينية وبقروا بطون الحوامل وقتلوا الأجنة فى الأرحام مع الشيوخ والنساء ؟

جيم : الضمير العالمى يتحرك حسب الطلب . والطلب دائما فى صحف الغرب صهيونى . ولن يشفى هذا المريض العالمى ويتحرك لصالحنا الا اذا أطلقنا كل مدافعنا وحررنا كل أرضنا . »

وتحت هذه الافتتاحية مربع « كرباج وراء السلبيات » وقرأت ، « فى الأسبوع الماضى قامت أسرة الكرباج بحملة للتبرع بالدم لقواتنا المسلحة . وأقبل شباب الجامعة على التبرع بحماس . ولكن كانت هناك مفارقات عجيبة . سألت احدى الفتيات فى كليتنا عن السبب فى عدم تبرعها بالدم فلم تقل ، كما قالت بعض الزميلات ، انها عملت عملية قريبا أو أنها يغمى عليها من منظر الدم لكنها قالت ، ربنا يحرسها ، أصل « بابى » منبه على ومحذرنى من السياسة بتاتا « والكرباج تهنىء الزميلة العزيزة لأنها فهمت كلام بابى بالضبط وتهنىء بابى لأن بنته سمعت الكلام . » وبجوار ذلك مستطيل عنوانه « اختراعات كرباجية » .

« منبه قانونى : لايقاظ التحقيق فى حريق دار الأوبرا
مشط وطنى : يسرح المخبرين من الجامعة ..
فهامة بموتور : لتحريك الزملاء والزميلات من عيّنة « وأنا مالى » ...
مكواة دستورية : نطبق بها الديمقراطية التى يتكلمون عنها ..
منـادى : ينادى على أهل مصر .. »

وجرت عينى على بقية العناوين « شعبان العطار يتفقد الجبهة ويوزع مربة البقر الأصلية على جنودنا البواسل . كرباج تجرى حديثا خطيرا مع شعبان » . و

« الهجرة فى زمن الحرب ، لا دموع للجبناء » و « أبطال مصر : محمد عبيد » و « ماذا تعلم عن شهداء الجامعة فى ١٩٣٥ ؟ » وتحت كل كلمة اسم لطالب أو طالبة لا أعرفه بالطبع وفوق كل ذلك اسم سمير ، هل أعرفه ؟ .. كنت لا أزال أمسك بيدى الكتاب الذى التقطته أول ما دخلت . ونظرت فيه كان عنوانه « تاريخ الثوارت الفلسطينية » وعلى المكتب أمام عينى « أحمد عرابى المفترى عليه » و « الميثاق » و « خطب جمال عبد الناصر » ولم أرفع كتابا من مكانه . وضعت الكتاب الذى كان فى يدى مكانه ، وخرجت وأغلقت الباب كما كان .

عدت للمطبخ . كانت التجارب لا تزال ١ ، ٢ ، ٣ . ولما فتحت الفوطة وجدت الخبز قد باش تماما وأخذ يتفتت فى أصابعى عندما حاولت أن أكسر منه لقمة أغمسها فى الجبن . لكنى ابتلعته كيفما آتفق وشربت كثيرا من الماء فشعرت فى بطنى بامتلاء قلق . وفى الصالة حين مررت أمام المرآة المكسورة فاجأنى وجهى واكتشفت أنى لم أحلق ذقنى منذ يومين . عدت للحمام لأحلقها لكن قبل أن أوصله دق جرس الباب مصحوبا بطرقات عنيفة متتالية .

ما أن فتحت الباب حتى اندفع عدد كبير من الناس ملأوا الصالة . جنود وأمناء شرطة ومن خلفهم بعض المخبرين بمعاطفهم التقليدية وأخيرا رجل يلبس بذلة مدنية زرقاء . ودون كلمة اندفع الجنود والمخبرون لغرفتى وفتحوا باب غرفة سمير ودخلوا المطبخ والحمام ووجدت نفسى وحيدا فى الصالة مع الرجل الذى يلبس البذلة الزرقاء وورائى جندى مسلح ببندقية .

تطلع الرجل فى وجهى بابتسامة هادئة وقال :

سمير هنا ؟

وقبل أن أفيق ، وقبل أن أرد كان المخبرون يعودون من أنحاء الشقة يقدمون

قال الرجل بلهجته الهادئة ـــ أنا مثلك تماما . أهتم بسلامة الاجراءات . ولكن للأسف اليوم زحمة العمل شديدة ..

ثم ضحك وقال ـــ لابد من بعض التساهل اليوم اذا سمحت . وان كانت مسألة أمر النيابة فى الواقع لا يجب ان تشغل بالك أنت . اهدأ أنت ولا تخف من للرجل نتيجة بحثهم بصيغة واحدة ـــ « لا أحد هنا يا آفندم .. لا أحد هنا يا افندم »

هز الرجل رأسه وتقدم فى الصالة ثم أشار لأحد الجنود فأغلق باب الشقة وظل واقفا أمامه . ومرة أخرى سألنى الرجل مشيرا الى بابى الحجرتين :

ـــ أيهما غرفة سمير ؟
لكنى أيضا ظللت أتطلع فى وجهه دون أن أرد .

تركنى وتوجه الى غرفة سمير أولا وغاب بداخلها فترة . أردت أن أدخل وراءه لكن الجندى الذى كان يقف خلفى أمسك ذراعى بقوة وأوقفنى حيث كنت .

وعندما وجدت صوتى صحت بصوت عال :
ـــ أين أمر النيابة ؟
فضحك أحد المخبرين .

خرج الرجل من غرفة سمير وبيده الفرخ الذى كنت أقرأ فيه منذ لحظة ملفوفا كالاسطوانة ومعه أوراق أخرى يتصفحها بنظرات سريعة . ولما رفع رأسه عن الأوراق ألقاها على المائدة وأشار للجنود الى الغرفة فدخلوها .

قال الرجل ـــ أين سمير ؟
فقلت ـــ لا أعرف . أين أمر النيابة ؟

كان الجنود قد بدأوا يخرجون من الحجرة وبأيديهم صفوف من الكتب يرصونها فوق بعضها على المائدة ثم يرجعون ليحملوا غيرها .
شيء . نحن نعرف ألا شأن لك بهذه الأمور ، ولا نريد غير سمير ...

شعرت برغبة فى التقيؤ فملت ممسكا بطنى بيدى .
قال الرجل ـــ تبدو متعبا ، اجلس .

كنت بحاجة لذلك فسحبت مقعدا وجلست عليه وأنا أحنى جسدى حتى اختفى الغثيان قليلا .

وقال الرجل مرة أخرى ـــ قلت لك لا تخف . ما الذى يزعجك ؟
فقلت له ـــ ماذا فعل سمير ؟
وغضبت من نفسى لأن صوتى خرج خافتا وضعيفا من الاعياء .
هز أمامى الفرخ الاسطوانى الملفوف وقال ـــ هذا .
قلت ـــ ماذا فيه ـــ؟
قال ـــ ألا تعرف ماذا فيه ؟
فقلت بصوت مرتفع ـــ بل أعرف . أنا الذى كتبته .
ضحك الرجل مرة أخرى ونظر فى ساعته ثم سحب كرسيا وجلس قبالتى وقال :
ـــ لماذا تريد أن تجر على نفسك المشاكل ؟
قلت مرة أخرى ـــ أنا الذى كتبته .

فهز الرجل رأسه ونادى أحد أمناء الشرطة وقال له ـــ أنت تعرف الصيغة . اكتب فى الساعة كذا الى آخره . واترك المضبوطات للآخر .

قال أمين الشرطة ـــ تمام يا افندم .
وجلس بعيدا وراء صفوف الكتب وبدأ يكتب فى ورقة طويلة .
التفت لى الرجل وقال وهو يشعل سيجارة بولاعة مذهبة :

ـــ واذن فأنت أيضا تريد ان تصبح مهما ؟ معك حق . هناك مولد فى هذه الأيام ولا أحد يعرف كيف ستنتهى .

قلت له وأنا أشير للفرخ الملفوف ـــ هل قرأت ما فى هذه الصحيفة ؟
قال ـــ لا حاجة بى لأن أقرأه . أعرفه من غير أن أقرأه .
قلت ـــ ما دمت تعرفه ، فماذا فيه ليغضبك ؟

تطلع الىّ بدهشة وقال ـــ يغضبنى ؟ أنا لا أغضب لشىء يا ابنى . أنا أؤدى عملى . لو كان سمير وأصحابه هم الذين يعطون الأمر لنفذت الأمر أيضا . ولكن من سوء حظهم ان غيرهم هو الذى يصدر الأمر . هذه هى المسألة باختصار .

وضحك من جديد فقلت له بغضب ـــ ولكن أنت . ما رأيك أنت شخصيا ؟ اِن كنت قرأت هذا الكلام أو كنت تعرفه كما تقول فما رأيك ؟ ألا تحب بلدك أنت أيضا ؟

رفع الرجل حاجبيه قليلا وقال ـــ أنا الذى أسألك . أنت ، ما الذى يغضبك ؟ أفهم أن مقرك الرئيسى الآن هو بار ستيللا . نعم لا تندهش . نحن

نعرفك.أنت أيضا . شغلت بالنا فترة منذ سنتين أو ثلاث سنوات عندما كنت فى الجمعية الادبية فى الكلية وكنت تنظم المحاضرات الثقافية وهذه الأشياء . نحن نعرف أن هذا هو المدخل للمصائب . لكنك أرحت بالنا بسرعة عندما انقطعت عن الجمعية ثم عن الكلية ثم اتجهت للبار .

مال الرجل نحوى وهو يطفىء السيجارة ويهم بالقيام وقال :

ـــ يا عزيزى ، لا تحاول أن تعطينى درسا فى الوطنية ولا تمثل أدوارا . نحن نعرف أنك لست مهمـا . أما سمير فقل له أن يسلم نفسه . هذا أفضل .

لم أعد استطيع المقاومة قمت بسرعة وقلبت المقعد فى طريقى للحمام وهناك أخذت أتقيأ . ووقفت بعد فترة مستندا بيدى الى حائط الحمام ألهث وأشعر بالعرق يغمر وجهى وكان أمامى فى ركن من الحائط عنكبوت ينزلق على خيوطه بسرعة وخفة ، والصفير المتقطع ، والارقام ٥ ، ٦ ، ٧ ، ٠ ، ٠ تطن وتطن . وحين خرجت الى الصالة أخيرا لم يكن هناك أحد . كان باب حجرتى وباب حجرة سمير مفتوحين والمقعد المقلوب لا يزال مكانه وبقية المقاعد متناثرة بعيدا عن المائدة . أغلقت باب الشقة الذى كان مفتوحا أيضا ثم بابى الحجرتين . وأقمت الكرسى المقلوب وجلست عليه . وجاء الصوت الآن واضحا دون صفير .. ميكروفون الشرق ... وفراشة الحاج ... لا أراكم الله مكروها .. المقرىء الشيخ .. ثم بدأت التلاوة بطيئة وحزينة .

كان الوقت أيضا قبل الغروب حين وصلت البيت من المحطة . كنت أمسك بيدى البرقية التى لم تفارقنى منذ استلمتها وكانت أمى تجلس فى صحن البيت وحيدة مستندة للحائط كعادتها . مسحت أمى طرف عينيها بشالها الأسود وقالت دون أن تنظر فى وجهى تسألنى أنا يا ولدى ؟ تسألنى أنا ؟ وماذا أعرف ؟ أمك لا تقوم ولا تخرج ولا تدخل . أمك لا تعرف شيئا . الناس تحكى لكنى لم أر ما حدث . لا خرجت من دارى ولا ذهبت ولا رأيت . ولكن سبحانك يا

ربى . هل يفهم الحيوان ولا يفهم الانسان ؟ .. يومها يا ولدى عندما سمعت الحصان يصرخ انشل قلبى . جاء الحصان ووقف أمام الباب يصرخ والكلب من ورائه ينبح ففتحت الباب وأنا أقول بسم الله الرحمن الرحيم . رأيته أمامى وهو عرقان عرقه يخر من جسمه ودموع فى عينيه ، صدقنى يا ولدى كانت فى عينى الحصان دموع . وعندما رآنى صرخ مرة أخرى ودق الأرض ودفع رأسه الى صدرى ثم رفع رجله كأنه سيدخل البيت فقفلت الباب وأنا أستعيذ بالله . أبوك يومها كان مريضاً . يقولون انه لم يكن مريضا ولكن صدق ما أقوله أنا ، أمك . بقى حصان عمك أمام الباب يصرخ والكلاب من خلفه تنبح ثم سمعنا صياح الناس وهم يقتربون من البيت . وقام أبوك من سريره ورأسه معصوب وهو يقول ماذا جرى ؟ ماذا جرى يا امرأة ؟ وكيف أردّ أنا ؟ المرأة ؟ كنت أعرف وكان يعرف . أخبار السوء يا ولدى يعرفها الانسان من غير سؤال . المصيبة تحل ومعها خبرها . الفرح وحده هو الذى يحتاج لسؤال وجواب . وأين الفرح ؟ المصيبة الثقيلة جاءت وانتهى كل شيء . عندما وصلوا ودخلوا البيت رجالاً وراء رجال قالوا وسمعنا . كان عمك رحمة الله عليه خارجا من الجامع بعد صلاة الجمعه ومعه حسين . خرجا مع الناس وفى وسط الناس . لكن أولاد الحاج صادق كانوا فى الانتظار بالبنادق . رآهم عمك لكنه مشى وكأنه لا يرى شيئا . ابتعد الناس . تركوه وحده ومعه حسين . يقولون انه عندما اقترب منهم مد العوضى له ورقة وقال لعمك وقع هذه الورقة فلا يعود بيننا وبينك شيء . لكن عمك مشى كأنه لم يسمع فصوبوا له البنادق . يقولون ان حسين سبقه ووقف أمام أبيه فقال له العوضى ابتعد أنت يا حسين هذا حساب بيننا وبين أبيك لا شأن لك به . لكنه وقف أمام أبيه ومد ذراعيه ليحميه . وجاء ناس ليشدوه بعيدا فاستدار واحتضن أباه . يقولون ان عمك دفعه بعيدا عنه . أخذ يدفعه وهو يقول ابعد يا حسين . ابعد يا ولدى . عش انت من أجلى . ولكن حسين كان مسمّرا فى الارض . يقولون ان يده كانت قبضة من حديد فى فخذ أبيه . وعندما مد عمك يده ليبعد حسين عنه ظنوه سيخرج مسدسه من جيبه فانطلق الرصاص وانكفأ الابن يحضن الأب والأب يحضن الابن والدم يجرى مع الدم . رجع دم الابن الى أبيه

ورجعا معا لتراب الأرض متوضئين مصليين طاهرين . وعندما رأى الحصان ما جرى كسر وتده وجرى الى هنا . وعندما جاء الناس الى البيت وأخذوا يصرخون ويحكون جرى أبوك حافيا وسحب البندقية المعلقة على الحائط وجرى الى الباب يبكى ويصرخ لكنهم منعوه . وماذا ينفع يا ولدى ؟ ماذا ينفع وقد مات من مات ؟ لو من الأصل ...

نعم يا أمى . لو من الأصل ! ونعم يا فريدة لو أنا نموت معا . لو أن الناس كالزرع ينبتون معا ويحصدون معا فلا يحزن أحد على أحد ولا يبكي أحد على من يحب . لو يُحصد زرع البشر الذي ينبت معا كله فى وقت واحد ، ثم يأتى نبت جديد يخضر ويكبر ، لا يذكر شيئا عما سبقه ولا يفكر فيما سيجىء ، فكيف تكون الدنيا لو تحقق حلمك يا فريدة ؟ ولكن هناك ما هو أفضل ، ألا ينبت ذلك الزرع من أصله فلا يكون شقاء ..

فتح باب الشقة دون أن أشعر . وعند الباب وقفت سوزى ومعها واحدة تشبهها .

قلت ـــ هل أنت سوزى ؟ من معك ؟

تقدمتا منى وقالت سوزى وسمعتها تضحك .

سلامة النظر .

ثم اختفى الضحك من صوتها وقالت وهى تقترب منى ـــ وبعدها معك يا ابن الحلال ؟ وجهك أكثر اصفرارا مما كان فى النهار وعينك تدمع ، ماذا بك ؟ ألم تخرج ؟ هل أكلت ؟

قلت وأنا أحاول أن أضحك ـــ نعم ، أكلت وتقيأت .

قالت ـــ اذن يجب ان تذهب لطبيب . من الصبح قلت لك ذلك . لآ

تمسكت على نفسك .

اسمعى يا سوزى . أنا أعرف علاجى ، نشرب بعض البيرة فيصبح كل شيء أحسن ما يكون ...

قالت بصوت مرتفع وهى تصفق بيديها
أعظم فكرة . أين البيرة ؟
عند البقال ، على الناصية .

سكتت سوزى لحظة الى ان استوعبت ما قلت ثم قالت كأنها تستفهم — طيب . أنزل لأشترى .

قلت — وهاتى أيضا بعض الخبز والجبن واللوازم التى تعرفينها .
لا تحمل هما . هل عاد سمير ؟
— وان كنت تحبين الزيتون الأسود فلا مانع أيضا .
— أسألك هل عاد سمير ؟
— وأنا أقول نشرب بيرة .
ترددت لحظة ثم قالت — حدث شيء فقل لى ما هو ؟
قلت وأنا أهمّ بالقيام — يخرب بيتك . هل ستشترين البيرة أم أنزل أنا ؟
تراجعت سوزى قليلا وقالت بصوت خافت .
— اهدأ . اهدأ . سأنزل حالا .

وعندما ما أغلقت الباب قمت مرة أخرى الى الحمام . غسلت وجهى ووقفت مستندا الى الحوض ورأيت وجهى فى المرآة ، ذقنى النابتة الشعر وعينى المحمرتين ثم من جديد جاءنى صوت أمى تقول — منيرة بصقت فى وجه أبيك . بصقت فى وجه عمها . حزينة نعم ، مات أبوها ومات أخوها ، ولكنه مهما كان

عمها . كانت الحكومة وصلت وسين وجيم من قتل القتيل . القتيل قتله العوضى أبو صادق يا حكومة ولكن من الذى يقول ؟ لا أحد ينطق . حتى أبوك قالوا له أن يسكت . عندما ذهب الى بيت منيرة لم تدخله بيتها . خرجت مكشوفة الوجه محلولة الشعر وسفت التراب فى وجه أبيك وبصقت عليه . هذا ما كان وهذا ما سمعت . أنا لم أرها . لا تريد أن ترانى . تقول انها تربى ولدها ليأخذ بثأر أبيها وأخيها . جاء زوجها وبندقيته على كتفه ومعه أوراق . لم يجلس . قال لأبيك وهو واقف بالباب أرض حسين وأبيه لابنى . لثأر خاله وجده ولا تنطق فى التحقيق كلمة . وكتب أبوك الأوراق دون كلمة . أبوك انكسر . لم يعد كما كان . فعل ما قالوه ولم ينطق فى تحقيق الحكومة . ومع ذلك ناس تقول المباحث بحثت وناس تقول انهم فتشوا بيت الحاج صادق ووجدوا بندقية العوضى . وهكذا يا ولدى دون أن يشهد من أهل البلد أحد قبضوا على العوضى ورحلوه . ناس يقولون انهم سيشنقونه وناس يقولون انهم سيسجنونه ومنيرة تقول لو شنقوا أولاد الحاج صادق كلهم وبقى منهم واحد فسيأخذ منه ابنها الثأر . ومع ذلك فماذا ينفع الآن ؟ الأب راح والابن راح والهم وحده هو الذى بقى . الهم لا يزيحه سجن ولا شنق ولا ثأر . كلم أختك فريدة . أنا أخاف عليها . لم تبك حين بكينا . عينها صارت نصف وجهها لكنها لا تبكى . تمشى فى البيت وتروح وتجىء وتتكلم وتضحك . لكنى أخاف عليها وأخاف منها . أعرف ان همها راسخ فى الصدر ...

نعم ، الهم راسخ فى الصدر . وبصقة منيرة راسخة فى الوجه . لو شىء يزيح الهم والبصقة ؟ أردت أن أصنع النهاية لكنى خفت . كانت دموع فى عينى فغسلت وجهى من جديد ووقفت مستندا الى الحوض . ثم جاء الصوت .. فراشة .. وميكروفون .. شكر الله سعيكم . ولا أراكم الله مكروها ... استمعتم للمقرىء الشيخ..

ولكن ها هى : دون ان نصنع النهاية فانها تأتى . خفنا منها أو لم نخف فانها

تأتى وينتهى معها كل شىء . ينتهى حسين وأبى وليلى وسمير والرجل ذو البذلة الزرقاء وكل شىء . وعندما تأتى النهاية ستبكى ليلى قليلا ثم تنسانى . « تضمنى أمى لأحزانها على أبيها وأمها وأخوتها وتذكرنى معهم كل يوم فى أغانيها الحزينة وهى تميل على جنبيها تعدد وتسكب الدموع . يموت أبى كمدا لأنه لم يعد له وريث . يقيم لى مأتما ويستدعى له مقرئا شيخا . سيساومه كثيرا على أجره مع ذلك . حتى ولو كان حزينا ومنهارا فانه لن يفرط فى نقوده . لا يريد ان يكون فى هذه الدنيا مأكولا . ومع ذلك لم ينجح . قال عمى كل البلد تعرف أن أرضهم مرهونة عندك ومع ذلك أنت الذى تعاملهم فى الطريق بذلة . ولكن كفى . كفى . لن نبدأ هذا من جديد .

سمعت وأنا فى الحمام صوت صلصلة زجاجات ونداءات فغسلت رأسى ومشطت شعرى وخرجت .

كانت سوزى تقف فى الصالة معصوبة الرأس بايشارب ملون ينزل على جبينها . وعلى المائدة أربع زجاجات بيرة . ابتسمت عندما رأتنى وقالت

— هذا هو الكلام . لو حلقت ذقنك أيضا تصبح أفضل .
ثم ضحكت وقالت — وربما تتحسن صحتك .

وعندما رأتنى أقف أمامها ساكنا هزت يدها فى وجهى وقالت — ابتسم يا شيخ . لم أر على وجهك ابتسامة من صباح ربنا . اجلس ولنشرب ولننس كل شىء فى الدنيا .

كانت توزع الخبز والطعام على المائدة بينى وبينها ثم قالت
أين الفتاحة ؟
— فى المطبخ .

جلست وبدأت آكل قبل أن تعود . ركزت على الخبز الجاف . كنت أتعجل أن تمتلىء بطنى وتهدأ لأستطيع أن أشرب . ولما عادت سوزى وجلست قبالتى أزاحت الايشارب من رأسها فبدا شعرها المفروق راكدا ولكن ظهرت فى جبينها كدمة زرقاء .

قلت وأنا أشير الى رأسها — ما هذا ؟
همت بأن تقول شيئا ثم تراجعت وقالت
— لا شىء .
قلت — كيف ؟ هذه الكدمة الزرقاء لم تكن فى رأسك قبل أن تنزلى .

صبت سوزى البيرة وقالت — أنت تسأل وعندما أحكى لك تعرق وترجع لك الحالة . لا ياعم . يفتح الله .

رفعت يدى وقلت بعد ان ابتلعت ما فى فمى من خبز — شكرا لك . لا اريد ان اسمع أى قصص تغم .

شربت سوزى جرعة كبيرة من كوبها وقالت وهى تضحك .
— يعنى هى لا تغم كثيرا . وربما اضحكت بعض الناس . أنا أصلى ترقيت .

قالت ذلك وأشارت لرأسها فسألتها بعينى عما تقصد فقالت وهى تواصل ضحكها

— أقول لك ترقيت . كانت حصة الضرب بالنسبة لى فى بوليس الآداب . الآن انتقلت لبوليس الطلبة . اسمع يا سيدى . بعد أن نزلت من عندك ركبت

الأتوبيس من شارع القصر العينى لميدان التحرير . لكن الأتوبيس وقف أيضا قبل ميدان التحرير وقال لنا السائق أن ننزل لأنه سيعود للجيزة . سألنا وماذا يفعل من يريد أن يذهب لشبرا ؟ قال تصرفوا . فتصرفنا . مشينا حتى الميدان وقبل أن نصله بسنه ، بل وقبل المجمع وجدنا خلقا كثيرا مثلنا يريدون أن يعبروا وخلقا أكثر من العسكر يدفعون الناس للوراء ويقولون ممنوع . اذهبوا للعتبة . وقال رجل عجوز كان يقف مقوس الساقين فى صوت متقطع يا حضرة الضابط أنا أسكن فى حى معروف كيف أذهب لبيتى من العتبة ؟ هذا ثالث مكان أحاول أن أمر منه لأذهب الى بيتى وفى كل مرة يحولوننى لمكان آخر . أعطاه حضرته ظهره وقال « مش شغلى . ممنوع » . تقدمت محتمية بالرجل العجوز وقلت له ، ولكن ماذا يفعل هذا الرجل ؟ أين الرحمة ؟ لو كنت مكانك لأرسلت معه أحد العساكر ليوصله حتى باب بيته . التفت الى الضابط غاضبا وقال نعم ، أنت من إياهم ؟ الرحمة والشعب والكلام الأصفر اياه ؟ يا عسكرى ؟ وجاء بدل العسكرى ألف يشوحون بعصيهم فى الهواء فتراجعنا جريا ، ولكن من سعادة حظى ، كما ترى ، اصابتنى خيرزانة فى رأسى .

ثم وضعت سوزى كوبها بعد جرعة كبيرة وضحكت مرة أخرى وهى تقول

ـــ انما تصدق بالله ، برغم هذه الضربة فأنا سعيدة ؟ العبيط قال لى انت من اياهم . يظننى من الطلبة ، ولست من اياهم يعنى من اياهم كما أسمعها دائما ؟

كانت تتكلم وهى تعب البيرة فأنهت زجاجة قبل أن أصب لنفسى كوبا واحدا ، وظهرت فى وجنتيها السمراوين بقعتان حمراوان مستديرتان ولمعت عيناها وهى تضحك بلا انقطاع . ثم توقفت . ثم أدارت رأسها فى المكان وقالت بصوت خافت مرة أخرى .

ــ اسمع يا سيدى . حدث شىء هنا . لا أعرف ما هو لكنى أشعر به . مثلا خارج الشقة وعلى السلم وفى الصالة طين كثير من أثر أحذية لم يكن هنا عندما جئت فى النهار . هل جاءك زوار ؟

ضحكت وأنا أصب الكوب الأول وقلت ــ نعم ، زوار احباء .
ظلت تثبت عينيها فى وجهى وقالت ــ لكن وجهك لا يقول ذلك .
قلت وأنا أرفع الكوب واتجرع الرشفة الأولى
فى صحتك .

رفعت كوبها وقالت ــ أنا صحتى كالحديد . فى صحتك انت يا صاحبى .

ثم عادت تدير رأسها فى المكان وتنهدت ثم قالت ــ قل لى ربنا يهديك . هل رجع سمير ؟ هل حدث شىء ؟

قلت لها ــ والله العظيم سمير لم يرجع . وأنا لا أعرف أين هو ولا أعرف أى شىء . ولا تنتظرى ان اعرف أى شىء فأنا لست مهما . ارتحت ؟

مع الرشفة الثانية بدأت أشعر بدبيب خفيف لذيذ فى عروقى فأخذت جرعة ثالثة كبيرة . لم يزل الدوار بعيدا لكنى أعرف انه آت واستحثه ، وقلت لسوزى التى كانت الآن تحنى رأسها وتركز نظرها فى كوبها .

ــ ما الذى يقلقك يا سوزى ؟ لماذا هذا الهم فى وجهك ؟
قالت دون ان ترفع رأسها ــ أبدا يا سيدى . فى الحقيقة أنا مجنونة قليلا فسامحنى . كل شىء هنا مفرح . بما فى ذلك مأتم جاركم رحمة الله عليه .

رحت أشرب آخر جرعة فى الكوب وقد بدأ النبض فى صدغى وأصبح للشرب معنى ثم قلت وأنا أضحك :

ـــ اعملى يا سوزى بحكمة أمى . تقول دائما من يموت يرتاح وانما الهم للأحياء .

هزت رأسها وقالت ـــ معها حق . يا ترى هل وصل الرجل العجوز لبيته فى معروف ؟

كررت وراءها وأنا أصب كوبا جديدا ـــ هل وصل الرجل العجوز لبيته فى معروف .

فقالت ـــ تسخر ؟ كان يجب أن تراه . لم يكن يستطيع أن يقف فكان ينقل رجليه باستمرار وكان خده الممتلىء بالتجاعيد يرتعش وهو يكلم الضابط . وبعد كل كلمة كان يمسح شفته بلسانه كأنه ينتزع الكلام من لحمه الحى . مع ذلك قال له « مش شغلى » . ناس حجر .

قلت ـــ عندما أشرب يا سوزى يصبح أمثالك أعدائى : لماذا لا تحكين لى بالمرة حكاية ريا وسكينة ؟

قالت وهى تنظر لى بعينين محمرتين ـــ اذن أنت أيضا من جملة الحجر .
ـــ حجر ، صخر ، اشربى ولا يهمك . ألا تذكرين ما قلته بنفسك ؟ قلت فلنشرب وننس كل شىء .

رفعت كوبها وقالت بعصبية ـــ أنا أمامك أشرب . ماذا أفعل يعنى ؟ أنا أيضا من جملة الحجر . أشرب الزفت وبجوارنا مأتم . كلنا حجر .

ـــ وما المفروض أن نفعل يا سوزى ؟ هل ننتحر ؟ لا أستطيع .. جربت ولم أستطع .

شربت سوزى جرعة كبيرة أخرى وضحكت دون نفس وقالت ـــ الظاهر كل الناس حجر . تصور حجرا من نوع «مش شغلى» يتزوج حجرة تشبهه فينجبان حجرا صغيرا .. حجر نونو ...

وأعجبتها الفكرة فضحكت ضحكة عالية وقالت
ـــ حجر صغير هكذا لكنه يلبس بذلة .. حجر ...
كانت الآن ترتج من شدة الضحك ولا تستطيع أن تتوقف لكنها تصر أن تواصل الكلام

ـــ حجر نونو لكن ناصح .. كأبيه وأمه .. حجر يتعلم ويصبح دكتورا يتفرج على الناس فى المستشفى تموت وكأنه فى السينما ثم .. ثم يصبح حجرا عجوزا كالأفندى الكلب صاحب المظاهرات ضد الانجليز .. حجر كركوب ..

قلت وسوزى تصارع ضحكها الذى لا يريد ان يتوقف وعيناها تدمعان
نعم حجارة تلد حجارة من أشباهنا والدنيا ماشية . التعيس من ليس حجرا ...

فقالت وهى ترتج ـــ أبدا والله .. الدنيا واقفة .. واقفة تماما لكنك لا تدرى ..

لكن سوزى توقفت عن ضحكها العالى فجأة عندما سمعنا المفتاح يدار فى الباب وصحنا فى وقت واحد ـــ سمير !

وكان بالفعل هو سمير . قال لى وهو عند الباب
ـــ الحمد لله أنك هنا .
ثم نظر الى المائدة والى زجاجات البيرة وقال بنبرة يائسة ـــ عملتها بالفعل ؟

لكنى كنت قد قمت وأمسكت بذراعه قبل أن يغلق الباب وقلت له
ـــ سمير . يجب ان تخرج من هنا حالا . جاءوا وسألوا عنك .
لكن سمير أغلق الباب وقال ـــ من الذين جاءوا وسألوا عنى ؟
ـــ قلت ـــ البوليس .
شهقت سوزى التى كانت قد قامت ووقفت ورائى وقالت ـــ اخرج يا سمير . اهرب .
أشار لها سمير ان تسكت وقال لى ـــ أنت سكران ؟
قالت سوزى ـــ أبدا . لم يكمل زجاجة واحدة . صدقه .
جذبت سمير من يده وقلت له ـــ تعال ان كنت لا تصدق .

كنت أجذبه من يده بقوة وهو ورائى الى ان فتحت باب حجرته على آخره فوقف يتأمل المقاعد المقلوبة والمرتبة الملقاة على الأرض وأدراج المكتب المفتوحة . ثم دخل وأغلق الباب وراءه .

وقفنا انا وسوزى صامتين أمام الباب المغلق ثم التفتت الى وقالت بصوت خافت وفى عينيها ألم .

ـــ لماذا لم تقل لى ؟
قلت بصوت خافت أيضا ـــ وماذا كنت ستفعلين ؟
قالت ـــ كنت أخرج أبحث عنه . كنت أقف فى الشارع وأحذره من طلوع الشقة .

فتح سمير الباب وخرج يقلب فى كتيب صغير ممزق الغلاف وقال بصوت حزين

ـــ لماذا أخذوا الكتب ؟ كانت المجلة هى التى تهمهم وفيها كل ما يريدون ، فلماذا اخذوا الكتب أيضا ؟ ما حاجتهم اليها ؟

قلت ـــ ربما يريدون أن يتثقفوا أيضا .
وضحكت لكن سمير ظل يتطلع الى متجهما وقالت سوزى بصوت خافت ملح

ـــ اهرب يا سمير . بسرعة .
وقلت له نفس الشيء وأنا أجذبه من يده مرة أخرى لكنه سحب يده بقوة وقال

ـــ لماذا أهرب ؟ بالعكس ، سأسلم نفسى . اذا هربت أثبت أنى مذنب وأخلق تهمة جديدة . أنا لست عضوا فى عصابة ..

ثم ضحك وقال ـــ ولا حتى فى حزب ! أنا أكتب . هذا كل شيء . سأسلم نفسى ولكن ليس الآن . أمامنا شيء نفعله أنا وأنت أولا .

قلت له ـــ أى شيء ؟
فقال ـــ ستعرف حالا . ولكن البس ثيابك . أنت جاهز بالفعل ؟ اذن البس حذاءك وهيا بنا . لابد أولا ان نوصل سوزى الى مكان مأمون . رأيت رجلا عند الباب يحتمل ان يكون مخبرا ويحتمل ان يعودوا فى أى لحظة . هيا . بسرعة .

كان يتكلم وهو يدفعنى نحو غرفتى فقلت وأنا اتجه للحمام ـــ دقيقة

واحدة . أحلق ذقنى . فقال سمير وهو يجذبنى من يدى

ــ من أسبوع لم تحلق ذقنك . الآن بالذات وقت الأناقة ؟ هيا ، البس حذاءك بسرعة وخلصنا .

وبينما كنت أدس قدمى فى الحذاء سمعت سوزى تقول

ــ لا تحمل همى يا سمير . لى صاحبة تسكن قريبا من هنا فى شارع ضريح سعد . سأذهب لها . وان شئت أنت أيضا يمكن ان تبيت هناك .

دفعنا سمير نحو الباب وهو يقول لسوزى ــ بل يكفى ان اطمئن عليك سنوصلك فى طريقنا . وبينما كنا نغلق باب الشقة سألت سمير

ــ ولكن فيم تريدنى أنا ؟ فيم يمكن أن أنفع ؟

قال سمير ــ ستعرف كل شىء الآن . سنتجه الى اليمين وليس الى شارع القصر العينى .. مدت سوزى يدها تحجزنا على السلم وقالت

ــ سأنزل أنا أولا وحدى ، ثم أنزلا أنتما ورائى .

عند باب الشارع تلفت يمينا ويسارا فلم أجد أحدا غير اصحاب العزاء يقفون بمدخل السرادق مصطفين . اتجهت يمينا كما قال سمير ومضيت وراء سوزى . عبرت الجزء المختنق من الرصيف خلف سرادق المأتم متحاشيا النظر فى وجوه أصحاب العزاء . والتقينا ثلاثتنا عند الناصية ثم مشينا فى شارع الفلكى الذى تحفه أشجار قصيرة وظلمة مبكرة . حاولت أن أخمن فيم يريدنى سمير وفشلت . واتجه ذهنى الى زجاجتى البيرة المتروكتين على المائدة . كان الجو باردا . وتطلعت للسماء فرأيت سحبا سريعة داكنة تتدافع لتبتلع قمرا هلاليا وليدا . تابعتها وهى تغزل نحوه خيوطها الشفافة البيضاء الى أن اختنق وركد تحتها ثم أقبلت

السحب الدخانية السوداء على عجل فابتلعته واختفى . وقال سمير فجأة

ـــ أشعر بانقباض من هذا الشارع . أكره ظلمته وصمته . هيا بنا نخرج الى النور .

عدنا مرة أخرى نتجه يسارا من شارع جانبي الى شارع القصر العينى . ومررنا بمقهى أنواره خافتة وأمامه مقاعد خالية مصفوفة تحت شجرة . وفي الداخل كان الناس يدخنون النارجيلة ويلعبون الطاولة . وبدت أنوار شارع القصر العينى الخافتة المطلية باللون الأزرق بسبب الحرب المنسية . واقبلت نحونا من شارع القصر العينى سيارة (مرسيدس) تضيء كشافاتها ، وعندما تجاوزتنا بقليل سمعنا صوت الفرامل عالية فتطلعنا وكانت المرسيدس الآن تتجه مسرعة للخلف نحونا الى ان تجاوزتنا وحاذت الرصيف فتوقفت ونزل سائقها متجها الينا . كان شخصا طويلا له شارب منسق يلبس بذلة كحلية بأزرار فضية من أحدث طراز . تقدم منا بسرعة وهو يقول

ـــ سوزى ، أليس كذلك ؟

فقالت سوزى ـــ مدبولى ! أوقعت قلبى ! أهلا .

لكنه قصد اليها وسطنا وأمسك ذراعها وقال

ـــ رأيتك فى الظلام . وأعرفك وسط ألف شخص . أين السلسلة يا شاطرة ؟

كان يتكلم بنبرة تهديد فتغيرت لهجة سوزى أيضا وهى تسأله

أية سلسلة يا شاطر ؟

قال وهو لايزال يقبض على ذراعها ـــ لاداعى للحركات. سلسلة المفاتيح الذهب التى كانت فى السيارة عندما كنت معى أخر مرة . الذوق أحسن .

قالت سوزى وهى تحاول ان تخلص ذراعها
ــ مدبولى . أفق لنفسك . أنا لم أر أى سلاسل ولا أعرف عن أى شيء تتكلم .

ربت سمير على كتف مدبولى وقال ــ يا أخ ...
فقال مدبولى ــ لا مؤاخذة يا أستاذ . أنت تعرف أشكالها ، والسلسلة التى سرقتها عزيزة على جدا . دعنى اتصرف معها .

قال سمير وهو يهز كتفه ــ هل لاحظت انها تمشى معى ؟
تطلع مدبولى الى سمير ثم الى ، وقاسنا ، ثم ترك ذراع سوزى وهو يضحك ضحكة قصيرة وقال لسمير

ــ هل تعرف يا استاذ كم تساوى السلسلة التى سرقتها ؟
فقال له سمير ــ هل تعرف يا استاذ ان اليهود سرقوا سيناء من خمس سنين ؟ كم تساوى سيناء فى نظرك ؟

تطلع مدبولى لسمير فترة ثم قال ــ آه ، أنت من اياهم ؟ الذين يريدون الحرب ويريدون ان يخربوا البلد ؟

ضحك سمير وقال ــ نعم أنا من اياهم ، فمن أنت ؟
تصلب مدبولى فجأة وقال ــ أنا لا اتكلم فى السياسة يا استاذ . أنا اريد السلسلة الذهب . لنذهب جميعا الى القسم لو شئت ..

تقدمت من مدبولى وأمسكت بذراعه وقلت وأنا أدفعه نحو سيارته ــ نحن لا نذهب الى أقسام وليس لدينا وقت نضيعه معك . هيا ، مع السلامة .

قال مدبولى ـــ ربما كنتما شريكيها ؟
فقلت وأنا أواصل دفعه نحو سيارته ـــ عليك نور . اتكل على الله ..
تراجع مدبولى نحو سيارته وقال وهو يشير بسبابته الى سوزى

ـــ لا تظنى انك أفلت منى . لى أصدقاء كثيرون فى المباحث ، وسيصلون اليك ولو اختفيت فى جحر .

فصرخت سوزى وراءه وهو يفتح باب سيارته ـــ وقل لهم أيضا عن العملات التى تهربها يا ابن الكلب !

وقف مدبولى أمام باب سيارته المفتوح وقال ـــ مومس . ماذا يمكن ان اقول أكثر من ذلك ؟ مومس !

اندفع سمير نحوه وصفعه على وجهه بقوة وضرب مدبولى سمير بقبضته فى بطنه وهو يرتكن الى سيارته واندفعت نحو سمير محاولا ان افرق بينه وبين مدبولى وكان يمسك به من ياقة سترته العريضة ويقول له بصوت متوتر .

ـــ المومس هو أنت وأشباهك يا مومس . المومس هو من يسمن على .. على ...

واختنق صوت سمير فجذبته بعيدا عن مدبولى ودفعته من باب سيارته وأغلقت الباب وراءه وضرب سمير هيكل السيارة المعدنى بقدمه كأنه يريد ان يهشمها وقال مدبولى وهو يندفع بسيارته ـــ سترون من أكون يا كلاب !

خرج ناس من المقهى على صوت صراخ سوزى وراحوا يتطلعون الينا وهم يقفون امام باب المقهى وتقدم بعضهم منا فى تردد لكن سمير قال بصوت مرتفع

غاضب ـــ المولد انفض . هيا . ارجعوا للشيشة . الشيشة ستبرد !

دخل بعضهم المقهى وظل آخرون واقفين يتطلعون لنا فى تحد وهمّ بعضهم نحونا لكنى جذبت سمير من ذراعه وعدنا نسير فى اتجاه الشارع الرئيسى . سرنا صامتين وأردت أن أقول شيئا لسوزى التى كانت تمشى وسطنا محنية الرأس فقلت محاولا أن أضحك .

ـــ أشياء غريبة تحدث لك اليوم يا سوزى . طالب مجروح تحت قدميك فى الترام ، وخيرزانة على رأسك فى التحرير وأخيرا مدبولى ... أصبحت على وجه من اليوم ؟

لكنها لم تتكلم ، ولم يتكلم سمير إلى ان وصلنا لشارع القصر العينى . كانت معظم المحلات مغلقة وقد اختفى الضجيج المعتاد لسيارات الأتوبيس ولكن كان هناك زحام من المشاة على الجانبين لانقطاع المواصلات .

قالت سوزى فجأة ـــ سيدنا من يكون مدبولى الكلب ! كأنى لا أعرف من يكون ! سعادته حلاق حريمى درجه ثانيه كان يأخذ منى ومن غيرى الدنانير الكويتية والريالات السعودية بسعر التراب ويبيعها للناس فى موسم الحج بضعف ثمنها . الآن كبر . أصبح مدبولى باشا . يترك الصالون لصبيانه ويشتغل هو فى العملات .

قال سمير ـــ وهنا سؤال مهم ، هل يجوز الحج بالعملات المهربة ؟
ولكن سوزى مضت تقول وهى تحاول ان تكتم البكاء فى صوتها ـــ أنا لست حضرة الشريفة ، ولكن والله والله ما رأيت سلسلة مدبولى الكلب .

قال سمير نافد الصبر ـــ وبعدها معك يا سوزى ؟ هل نحن نحقق معك ؟

فى ستين داهية هو وسلسلته ..

فعاد الصمت . وعندما وصلنا الى شارع ضريح سعد وقفت سوزى أمام بيت فى منتصف الشارع الصغير وقالت بصوت ضعيف وهى تمد يدها لتصافحنا

سأصعد هنا .
فقال سمير ـــ سأصعد معك لأوصلك . ربما لا تكون صاحبتك هناك .
وقلت ـــ سأنتظر هنا .

أشعلت سيجارة ووقفت اتطلع لضريح سعد الذى كان ينتصب بعرض الشارع خلف السور الحديدى كتلة مربعة صماء فى عتمة الليل . سرت مقتربا منه واستطعت أن أميز خلف السور الحديدى البوابة التى تمثل مدخل معبد فرعونى وسط عمودين صغيرين . كان مظلما ومهجورا وعلى كل من جانبيه نخلة طويلة وحيدة وحزينة . ازددت اقترابا منه لكننى شعرت بيد سمير على كتفى وسمعت صوته يقول ـــ هل تريد أن تزور ضريح سعد ؟

قلت ـــ أمر عليه كثيرا ، لكننى لم أتأمله أبدا عن قرب . أردت أن أرى كيف يكون ...

ثم قلت وأنا أضحك ـــ ولكن على العموم سعد باشا قبل أن يموت ...
فقال سمير بغضب مفاجىء ـــ لا تقلها . كذب .
قلت ـــ بالراحة . لا تغضب منى يا سمير . أنا أتكلم عن نفسى . وعن نفسى فأنا أعرف أنه لا فائدة منى . بصراحة يعنى أنا لا أعرف فيم تريدنى . ولكن لو كنت تريدنى لأشياء لها علاقة بالسياسة فدعك منى . لو تركتنى الآن فان رغبتى الوحيدة الحقيقية هى أن أعود لأكمل البيرة .

قال سمير وقد عاد يجذبنى لنعود فى اتجاه شارع القصر العينى ـــ ولم كل هذا ؟ ما معنى الشرب كل ليلة بهذا الشكل ؟ حاولت كثيرا ان افهمك فلم أنجح . أيمكن حقا ان يكون كل هذا بسبب حكاية عمك وابن عمك ؟

توقفت فى الطريق فجأة وهتفت ـــ عمى وابن عمى ! ما الذى أدراك بهذا ؟

قال سمير وهو يتفرس فى وجهى ـــ ما الذى أدرانى ؟ .. ولكن يا ابن الحلال أنت حكيت لى حكاية عمك حسين وابن عمك آلاف المرات . هى قصة اسمعها منك فى كل ليلة أعود فيها وتكون انت قد شربت وبدأت حصة البكاء . من حسن الحظ انك لم تشرب كثيرا الليلة وانك عاقل . فأنا احتاج اليك . بصراحة ليلى تحتاج اليك .

قلت ـــ وليلى أيضا ؟ ماذا حدث لليلى ؟

قال سمير وهو يجذبنى من ذراعى لنسير من جديد ـــ لا تنزعج . لم يحدث لها شيء . لكنها فى حالة .. ماذا أقول ؟ حالة غريبة . ربما تكون قد سمعت عن المظاهرة والاعتصام فى ميدان التحرير ؟

ـــ نعم ولكن ما علاقة ليلى بهذا من فضلك ؟ رأيتها فى الصباح ولم تقل شيئا . هل هى أيضا تعمل بالسياسة سرا ، مثلك أنت ؟ اليوم لن يدهشنى شيء .

قال سمير وهو يضحك ضحكة قصيرة ـــ لا ، ليلى بدأت اليوم فقط . ولم تبدأ سرا ولكن علنا . جاءت الى الميدان بعد الظهر وبدأت تتحمس للاعتصام أكثر من الجميع . ليلى لم تشترك معنا قبل اليوم فى أى نشاط رغم أنى حاولت معها . والآن لا تريد ان تنصرف من الميدان . معظم البنات انصرفن قبل الغروب

ولكنى فشلت فى اقناعها بالعودة للبيت . أرجوك أن تساعدنى .

ثم قال بعد فترة ــ أظن ان كل حالتها هذه أزمة حب وانك انت السبب .

مرة أخرى أنا السبب ! ولماذا لا تكون أنت السبب ؟ ألم تقل انك حاولت أكثر من مرة أن تشركها معكم ؟

ــ نعم ، حاولت وفشلت .

ــ والآن بعد أن نجحت تبدو حريصا على ابعادها ، فلماذا ؟ أنا لا أفهم ؟

قال سمير ــ تمنيت ان تفعل ذلك وهى مقتنعة به . وهى تفهم ماذا تفعل وليس لمجرد الهروب من أزمة حب . وثانيا لانه لا معنى لبقاء بنت وحيدة فى الليل والبرد وسط الرجال . يمكنها ان تعود فى الصباح لو أرادت .

ــ اذن فلم تغيرك السياسة يا سمير . ما زلت صعيديا يهمك أمر البنات وسترتهن ! .. فى الواقع ان السياسة هى الغريبة عليك .

قال سمير وقد عاد لعصبيته ــ أرجوك لا تقل « السياسة » « السياسة » كما تقولها سوزى أو أى انسان جاهل . أنت طالب . متعلم . والمفروض انك تفهم . ما أعمله ليس اسمه « السياسة » . ما هو المفروض ان يعمله الانسان فى بلد حارب من أجل حق وهزم ؟ أن يجلس فى المقهى ويتفرج ؟

ــ آسف ان كنت أغضبتك .

ــ لا تتأسف لى أنا . أنت لم تخطىء فى حقى أنا . وعلى العموم فأنا لا

ألومك ولا ألوم أحدا . أنا أيضا كنت غافلا ونائما .

ــ نعم ، وصحوت دون ان يدرى أحد . اليوم فقط اكتشفت أنى أسكن معك من سنين دون ان أعرفك . كيف حدث ذلك ؟

التفت نحوى وقال ــ صحوت كما قلت أنت . وان شئت حكيت لك . هى قصة طويلة ، أيهمك ان تسمعها ؟

قلت ــ طبعا . أتمنى ان اسمع .

قال سمير ونحن نسير بعكس زحام العائدين من اتجاه التحرير ــ اذن اسمع ، ولو أنى لا اعرف من أين أبدأ . لا اعرف ايضا ان كنت قد حكيت لك عن حياتى فى اول دخولى للجامعة . ولكن المهم أننى قبل ان آتى لأسكن معك كنت أسكن فى شقة مجموعة من الطلبة من كليات مختلفة . ستة أو سبعة فى شقة واحدة وكل اثنين منا وأحيانا ثلاثة فى غرفة واحدة . وكانت فرحتى بالنقلة الى الجامعة والى القاهرة تتلخص فى شيء واحد . أن أفرج أخيرا الكبت الذى عشته فى قريتى .

قاطعته بضحكة صغيرة وقلت ــ هذا أعرفه جيدا .

فقال سمير وهو يهز رأسه ــ نعم ، انت تعرف عن هذا ما فيه الكفاية ولكنى احكى لك الحكاية من أولها . فى تلك الأيام كان يشاركنى غرفتى فى شقتنا المزدحمة طالب هندسة فلسطينى خجول اسمه عصام يدمن القراءة وينصحنى أنا أيضا ان اقرأ فأسخر منه . انا وقتها لم أكن أصلا أقرأ مواد الكلية فكيف أهتم بقراءة التاريخ والسياسة والأشياء الفارغة التى تضيع الوقت ؟ كانت آرائى فى كل شيء تتكون مما أتلقفه وأسمعه من أحاديث الناس ، وكانت كلها آراء

مريحة للنفس . فالهزيمة التى نعيشها اسمها نكسة ، والنكسة حدثت لمجرد صدفة وسنصلحها باذن الله بأن نزيل آثار العدوان . أما الفلسطينيون فقد فقدوا وطنهم لأنهم باعوا أرضهم لليهود . وأما العرب فهم يخوّنوننا ويتخلون عنا فى كل حرب ومع ذلك فيجب ان نحتملهم لأن هذا هو قدرنا . سمعت آخرين يرددون ذلك بكل ثقة ففعلت مثلهم دون ان اشغل نفسى بالقراءة عنه أو مجرد التفكير فيه . ولماذا أفكر وهذه الآراء تعطى شعورا لذيذا ومريحا كما قلت لك ؟ الاحساس باننا فعلنا كل ما علينا لكن الظروف هى التى خانتنا والزمن الغدار ؟ وكنت أحياناً أقول هذا الكلام لعصام وأنا أمزح معه . أقول له أنتم بعتم أرضكم لليهود فلا داعى للتظاهر بالحزن ولا لعبارات الوطن السليب وعائدون وأجراس العودة وما أشبه . ولكن لا تهتم يا عصام فنحن سنحرر لكم الوطن السليب ونعيدكم اليه رغم أنوفكم . سنحرمكم من الثروات الفاحشة التى تجمعونها وانتم تتظاهرون أنكم لاجئون مساكين . وكان عصام يعرف رغم قسوة ما اقول أنى لست سىء النية . انى امزح معه كما امزح مع الآخرين فى الشقة . كما كنت اقول لزملائى البحاروة فى الشقة مثلا لولا نحن الصعايدة لظل الهكسوس يكتمون أنفاسكم حتى اليوم . أو كما كنت أقول لزميلنا السكندرى دخل الانجليز مصر بسبب خناقة حمّاركم مع رجل مالطى ودفعنا سبعين سنة من عمر البلد بسبب غباوة حمّار من بلدكم . وكان زملائى فى الشقة بدورهم يسخرون من الصعايدة ونتبادل جميعا هذا النوع من المزاح الثقيل . وعندما كنت أقول لعصام ما أقول كان يجاوبنى بالضحك ولكن وجهه يفضح الألم لانه يعلم ان مزاحى معه هو بالذات يمثل رأيا . كان يحاول ان يثبت لى انى مخطىء فيعطينى كتبا لأقرأ لكنى لا افتحها . وذات مرة كان حزينا وصامتا لسبب لا أدريه أردت ان أمزح معه كعادتى لكنه انفجر فىّ غاضبا وقال أعطيتك كتبا لتقرأ ولتفهم فلم تفعل . ان قلت هذا الكلام فى وجهى فلا تكلمنى بعد اليوم . سأقول لك ياسمير كيف باع جدى وأبى أرض فلسطين . وأخذ عصام يكلمنى بصوت مرتفع ببطء وهو يشوح بيديه كأنه يعلم درسا لطفل . قال لى أنا من قرية اسمها حلحول فى فلسطين يا سمير . كان الانجليز

يحتلون فلسطين ووعدوا بها اليهود يا سمير . بدأوا يهجرون اليهود لفلسطين ويعطونهم الأرض والسلاح فثار الناس وحملوا السلاح ليدافعوا عن ارضهم يا سمير . بهذه الطريقة بدأ عصام يحكى لى عن أسرته فى حلحول .

قال لى انه عندما حدثت أول ثورة كبيرة فى فلسطين على هجرة اليهود ، أراد الانجليز ان يؤدبوا الفلسطينيين ليعرفوا ان الوعد بمنح بلادهم لليهود ليس كذبة . وكانت حلحول بين القرى التى أدبوها . ذات يوم جاء جنود الاحتلال للقرية الصغيرة وقال الانجليز لأهلها هناك ٣٦ من الثوار من اهالى حلحول وعندكم ٣٦ بندقية لابد من تسليمها لنا . ولم يكن من فى القرية يعرفون شيئا عن بنادق الثوار ، ولو عرفوها لما سلموها . لكن الانجليز قالوا سنرى . جمعوا من فى القرية من الشيوخ وصفوهم وقوفا فى الشمس ، فى الصيف ، وقالوا ستظلون واقفين هنا حتى تظهر البنادق . وتناوب الانجليز حراسة أسراهم الواقفين الممنوعين من الجلوس بالنهار والليل . ومر اليوم الأول ولم يتكلم أحد . وفى اليوم الثانى طلب الأسرى الماء فطلب الانجليز البنادق . وعندما سقط الضعاف على الارض اعياء وعطشا لم يسمح الانجليز برفعهم من مكانهم . وهكذا مر اليوم الثالث دون نوم ودون جلوس ودون ماء ولا طعام ، وزاد عدد من عجزت أقدامهم عن حملهم . وفى اليوم الرابع بدأ الشيوخ يموتون .

قال عصام ، وكان جدى ضمن من ماتوا هناك يا سمير وهكذا باع جدى أرض فلسطين . ثم حكى لى عصام عن أبيه . قال عندما جاءت حرب فلسطين فى سنة ٤٨ ودخلتها البلاد العربية قالت هذه البلاد للفلسطينيين ان يهاجروا منها الى ان تطهر الجيوش العربية ارض فلسطين وتقضى على عصابات الصهاينة . ولكى يعجل اليهود بهذه الهجرة بدأوا يذبحون الفلسطينيين فى دير ياسين وفى غيرها ليلقوا فى قلوبهم الرعب . وبدأ الناس يهاجرون ورفض أبو عصام . قال لمن معه ان كان علينا أن نموت فلنمت ونحن ندافع عن ارضنا ولا داعى لأن نموت ضحايا كما مات آباؤنا . كان واحدا ممن حملوا بنادقهم وأجسامهم أمام دبابات اليهود

وسقطوا هناك دون ان يذكر اسماءهم أحد .

وقال لى عصام وهكذا باع أبى ارض فلسطين يا سمير .

وعندما انتهى عصام من حكايته كانت عينه تلمع بالدموع خلف نظارته الطبية ، فاعتذرت له وشعرت بخجل من نفسى . لا أقول لك ان آرائى تغيرت ولكنى كففت عن المزاح معه فى مسألة بيع الارض وظللنا صديقين . وبعد فترة جئت أنا وسكنت معك فلم أعد أرى عصام إلا نادرا ، ثم انقطع عنى فلم أعد أراه أبدا . وذات يوم كنت أمسك صحيفة يومية أقلب فيها ففاجأتنى صورته بوجهه النحيل ونظارته الطبية وتحتها العبارة التالية الشهيد الفلسطينى أبو كذا وبين قوسين عصام الفلانى الطالب بهندسة القاهرة .

لم يكن عصام قد حدثنى أبدا عن انه سيتطوع أو سيشترك فى الثورة . لم يناقشنى فى مستقبل القضية أو الكفاح . كل ما فعله انه ذهب هناك مثل أبيه ومثله قرر ألا يموت ضحية وان يعود دمه لأرض وطنه . وعندما قرأت نعيه فى الصحيفة كتبت كلمة صغيرة فى انفعال حزنى . كتبت عن استشهاد عصام وأبيه وجده وأعطيت الكلمة مع صورته لزميل من بلدتنا يحرر احدى صحف الحائط فى الكلية . كان هو أيضا ، مثل عصام ، يطلب منى أن أقرأ وأن أكتب ...

كنت أتابع قصة سمير ونحن نسير فى الشارع المزدحم بالمارة يدفعوننا بأكتافهم فننزل عن الرصيف مرة ونعود له مرة أخرى ولكن دون ان يتوقف سمير عن الكلام . كان يتكلم بسرعة وانفعال وهو يقبض على ذراعى ولكن عندما توقف كان صوته خافتا وحزينا فلزمت الصمت أيضا . ثم سألته بعد فترة .

ـــ وهل كان هذا هو السبب فى أن تعمل بـ ...

ثم منعت نفسى من أن أكمل ، فقال سمير وهو يهز رأسه .

ــ نعم ، كان هذا هو السبب . لكى أكتب عن عصام قرأت شيئا عن فلسطين وعن حلحول . ثم وجدتنى أقرأ غير ذلك فرأيت حلحول فى مصر ومصر فى فلسطين وآلافا من اجدادى ماتوا مثل جد عصام وآلافا من آبائنا ماتوا كأبيه وان المصيبة واحدة والهم واحد .

قلت وأنا أتوقع ان يعود سمير لغضبه ــ نعم ، ولكن مع ذلك فهناك فلسطينيون ، غير جد عصام وأبيه ، باعوا أرضهم ، أليس كذلك ؟

ولكن سمير سكت فترة ثم قال بهدوء ــ اسمع . عندما احتل الانجليز مصر وزعوا ارضا على الذين أعانوهم على احتلال مصر وكانوا عشرات . لكنهم وضعوا فى السجون ثلاثين ألفا من الذين ثاروا مع عرابى غير من ماتوا فى الحرب. فمن هم المصريون حقا ؟ وعندما جاء اليهود باع لهم بعض الفلسطينيين أرضا وكانوا عشرات . لكن آلافا ماتوا فى الثورات على اليهود وفى الحرب معهم . فمن هم الفلسطينيون حقا ؟ يا صديقى فى داخل كل شعب جماعة تنبح وراء من يلقى لها العظمة . وهل تريد ما هو أكثر ؟ فى داخل كل انسان ذلك الكلب الذى ينبح وانما المهم ان نخرسه..

كنا وقتها قد إقتربنا من الميدان وبدأت تكثر عربات الجنود المصطفة وراء بعضها بحذاء الرصيفين والعربات السوداء الصغيرة التى يشغلها الضابط والموتوسيكلات التى يرتكن عليها أمناء الشرطة وبأيديهم أجهزة اللاسلكى وعلى رؤوسهم الخوذات . واخيرا عند مجمع التحرير بدا طوق من الجنود لابسى السواد الواقفين متجاورين بعرض الشارع ووجوههم نحونا . وكانوا يستندون على عصيهم الطويلة التى ركبت فيها الدروع .

قال سمير وهو ينظر لهم ــ لن نستطيع أن نعبر الميدان من هنا . تعال

فلنحاول من مكان أهدأ .

دخلنا من شارع جانبي مواز لمجمع التحرير على ناصيته كنيسة ويكاد يخلو من المارة ، فلم يكن سوى وقع أقدامنا فى الظلام وخشخشة أوراق الشجر الجاف التى نطؤها . وبعد فترة قال لى سمير .

ـــ اعذرنى لهذا السؤال ، ولكن لماذا فى رأيك مات ابن عمك ؟ لماذا وقف أمام أبيه وترك الرصاص يخترقه ؟

باغتنى السؤال فلزمت الصمت لكن سمير استمر يقول ـــ كثيرا ما استوقفتنى هذه المسألة وأنت تحكى القصة وأريد ان اعرف رأيك ..

قلت بعد فترة ـــ ما دمت سمعت القصة منى كثيرا كما تقول ، فلابد وأنك تفهم لماذا فعل ذلك .

قال سمير ـــ ولكنك قلت ان عمك قال له فى اللحظة الحاسمة ابتعد يا حسين . عش أنت من أجلى . فلماذا لم يبتعد ، على الأقل ليثأر لأبيه ؟

قلت وأنا أفكر ـــ لا أنا ولا أنت نستطيع ان نعرف ما الذى كان حسين يفكر فيه وقتها . ربما لم يكن يفكر فى شىء أبدا . ربما يكون قد راوده الأمل فى أنه يستطيع حماية أبيه بجسمه . ربما يكون قد فكر فى أنهم لن يطلقوا الرصاص ما دام هو المتصدى له . ربما يكون قد قرر ان يموت مع أبيه فى نفس اللحظة ما دام الموت قد جاء ، فقد كانت هذه طريقته فى الحب .

قال سمير ـــ نعم ، ربما . كل ذلك ممكن وهو سر يخص حسين وحده . ولكنى الآن أفكر ، ربما يكون أيضا قد أراد أن يعطى مثلا ...

قال سمير ذلك وكأنه يحدث نفسه ولا ينتظر منى ردا . ولم يكن عندى ايضا أى رد .

كنا وقتها قد وصلنا الى مسجد عمر مكرم ، وهناك أيضا كانت تقف عربات للأمن المركزى وطوق صغير من الجنود بثيابهم السوداء يسدون الطريق للميدان . ولكن سمير أشار للرصيف المحاذى للمجمع وكان مفتوحا لأفراد قلائل يخرجون من الميدان ، وقال لى فى همس

ـــ تعال وامش بثقة .

تابعت خطوته وكان بالفعل يمشى فى بطء وثبات دون ان يتلفت يمينا أو يسارا فنفذنا من الطوق من غير ان يستوقفنا أحد وأصبحنا فى طرف الميدان . وكان الشارع الصغير المفضى للتحرير مزدحما بالأحجار والأسياخ الحديدية الملقاة الى جانب الطريق بجوار سلالم خرسانية تصعد فى الفضاء منذ سنوات لبناء كوبرى للمشاة فوق الميدان . وعندما اقتربنا بدا المكان امام عيوننا اكثر اتساعا وهو يخلو من ازدحامه المعتاد بعربات الترام والأتوبيس والسيارات ، وبدا أكثر اظلاما وقد اغلقت كل المحال المطلة عليه عدا مطعم فول ايزافيتش الذى كان قد أنزل بابه الحديدى حتى منتصفه مقهى صغير يجاوره . وكان هناك زحام من الطلبة والأهالى الذين يقفون فى مجموعات متناثرة فى قلب الميدان المحاصر ، والذى كانت تحدده من جميع الجهات السلالم الرمادية الصاعدة فى الفراغ ومصابيح عالية للاضاءة مطلية باللون الأزرق تنشر ضوءا باهتا فى الميدان الواسع . وبينما كنا نتقدم كانت تصلنا عبارات من المجموعات التى نمر عليها والتى يتوسطها طلاب يحيط بهم رجال أكبر فى السن يتبادلون النقاش . وسمعت عبارات متناثرة وأنا أمشى الى جوار سمير .. « كيلو اللحمة أصبح بجنيه .. » .. « امريكا تسلح اسرائيل ولا أحد يعطينا السلاح » ... « أنا ضد إشتراك البنات فى الاعتصام والمظاهرات » ... « أين السلاح ؟ » .. « السلاح موجود وأنا أعرف » .. وكنا

نتقدم نحو وسط الميدان ، نحو قاعدة التمثال المستديرة التى تحلق حولها عدد كبير من الطلبة يصنعون دوائر متعاقبة ويجلسون متجاورين متشابكى الأيدى يغنون أو يهتفون . لكننى لم أكن أميز الكلمات . ولاحظت ان بعض الناس فى العمارات المحيطة قد وقفوا يطلون من النوافذ والشرفات . وعندما اقتربنا من قاعدة التمثال تعرف أحد الطلبة على سمير فأقبل نحوه مسرعا وقال .

ـــ أين كنت ؟ نحن نبحث عنك من زمن . هل صحيح ان اللجنة قررت انهاء الاعتصام ؟

قال سمير ـــ من أشاع ذلك ؟ وأين بقية اللجنة ؟ ربما يكونون قد قبضوا على الجميع . ولكنا سنبقى هنا ولو لم يعد فى الميدان غيرى وغيرك . لا تصدقوا المخبرين ولا تتركوهم يندسون وسطكم .

ثم التفت سمير الىّ وقال ـــ وحتى لو فشل هذا الاعتصام فسيكون غيره غدا أو بعد غد الى ان يصبح الاعتصام مصر كلها فتزحف للقناة وتعبر . سيحدث هذا صدقنى . وسيحدث أكثر .

ثم اتجهنا نحو المجموعة الرئيسية التى تحيط بقاعدة التمثال . كانوا يكررون الآن هتافا واحدا منغما « اصحى يا مصر .. اصحى يا مصر » ، وكل منهم يمسك بيد الآخر فى حلقات تدور حول القاعدة الرخامية التى تنتصب للفراغ . كانت اصوات الطلاب مبحوحة ولكن عيونهم تلمع بالحماس وكان من السهل أن نعثر على ليلى التى أشار لها سمير ثم ابتعد عنى .

كانت تجلس وسط مجموعة قليلة من الفتيات تتشابك أيديهن ويهتفن مع الجميع « اصحى يا مصر » . وحين تقدمت منها ورأتنى صمتت وراحت تنتظر . وقفت امامها مرتبكا من النظرات التى تحدق بى وأخيرا قلت لها بصوت

مرتفع لتسمعنى .

ـــ ليلى .. أريدك فى شىء مهم .

فقالت هى أيضا بصوت مرتفع

ـــ ما الذى جاء بك إلى هنا ؟ هذا ليس مكانك .

قلت ـــ أعرف ، ولكنى لن أستطيع أن أقول لك ما أريد ونحن هكذا . أرجوك أن تأتى دقيقة واحدة .

قامت من مكانها ومرت وسط صفوف الطلبة الذين كانت أنظارهم تحاصرنى وقد كفوا عن هتافهم . وحين وصلت ليلى إلى قالت ـــ ماذا جاء بك هنا ؟ هل قال لك سمير أن تأتى ؟

قلت ـــ نعم .

كانت ليلى أيضا مبحوحة الصوت محتقنة الوجه ، منفعلة وعصبية . قالت وهى تمشى بسرعة باتجاه الرصيف وتكلمنى دون أن تنظر فى وجهى

ـــ أخطأت حين جئت . هذا ليس مكانك .

ـــ قلت ذلك من قبل يا ليلى ، وسمعته .

ـــ ومع ذلك عندى لك خبر مهم . وحسن انك جئت .

كانت لا تزال تمشى بسرعة وأنا ألاحقها بصعوبة فسألتها

ـــ ما هو الخبر ؟

قالت بلهجة عادية ـــ لم أعد أحبك .

فقلت ـــ مفهوم .

كنا قد وصلنا إلى رصيف العمارات الذى يقع فيه المطعم والمقهى ،

وهناك بجوار أحد الأبواب كانت طفلة فى العاشرة من عمرها ، تعصب رأسها بمنديل ، ترتكن على الحائط وتبكى . تقدمت منها ليلى وأمسكتها من كتفها وقالت لها .

ــ ماذا جرى ؟

توقفت البنت عن البكاء عندما كلمتها ليلى ووقفت تتطلع لها بعينين سوادوين حذرتين

قالت لها ليلى ــ هل تهت ؟ أين تسكنين ؟
قالت البنت وهى تشير لعمارة مجاورة
أنا أسكن هنا ...
فقالت ليلى وهى لا تزال تمسك كتفها
ــ ولماذا نزلت الآن ؟ عودى للبيت حالا ..
قالت البنت ــ ستى ستضربنى .
سألتها ليلى ــ لماذا ؟

فلوحت لها البنت بنصف (ترموس) مكسور فى يدها وحين رفعته تطلعت اليه وبدأت بكاءها من جديد .

قالت ليلى وهى تقاوم الضحك
ــ اهدئى يا حبيبتى . ما الحكاية ؟
قالت البنت ــ ستى اعطتنى الترموس وفيه شاى . قالت خذيه للطلبة تحت .

لم تعد ليلى تستطيع مقاومة ضحكها وقالت ــ ترموس ؟ لكل هؤلاء الطلبة ؟

لكنها كفت عن الضحك بسرعة وقالت للبنت ــ وهل إنكسر منك؟
هزت البنت رأسها وقالت ــ لا . قابلت رجلا أعطيته الترموس وقلت له يا عم هذا الشاى للطلبة . خذوا الشاى وأعطونى الترموس .. فأخذه منى الرجل ورماه على الارض وقال لى أبوك وأبو الطلبة ...

ضربت ليلى كفا بكف ثم قالت وهى تربت على كتف البنت ــ سامحيه يا بنتى . هو لا يقصد . عودى انت للبيت . لا تخافى . ما دامت ستك ارسلتك بالشاى للطلبة فهى طيبة .

هزت البنت رأسها وقالت ــ ستى طيبة . ثم رفعت نصف (الترموس) المكسور مرة أخرى وقالت بصوت باك

ــ ولكنها ستضربنى ..
. قالت لها ليلى ــ والله العظيم لن تضربك . هيا إسمعى الكلام .
وأخذتها من يدها وسرنا معا حتى أوصلتها الى باب العمارة التى أشارت لها منذ البداية .

وعندما استدرنا لنعود قالت ليلى
ــ والآن تستطيع انت ايضا ان تنصرف . أشكرك . فعلت ما يجب وانتهى الأمر . ثم مدت يدها لتصافحنى .

قلت وأنا أحاول ان أكون هادئا ــ اسمعى يا ليلى . أنا لم أفرض نفسى عليك أبدا . ولكن سمير يريدك ان تعودى للبيت . طلب منى ان ارجوك ذلك . وفى رأيى ، كصديق ، أن طلبه معقول . يمكنك ان تعودى هنا فى الصباح اذا اردت .

عادت ليلى لمشيتها السريعة وقالت
ــ هل أقول لك على اكتشاف آخر ؟

سكت فمضت تقول ــ اليك هذا الاكتشاف . أنا لست ملك سمير . ولست ملكك ولا ملك أحد . أنت لم تفرض نفسك عليّ . تمام يا افندم . أنا التى فرضت نفسى عليك . كنت أسهر ليالى كثيرة أفكر فيك . ما هو السر الذى يشقيك ؟ كيف يمكن أن أساعدك ؟ كيف يمكن ان أسترد حبك ؟ اليوم فقط اكتشفت أنى لم أكن أحبك وانما كنت أحب غرورى . أرفض أن أسلم انى هزمت . أنتظر أن تعود لى كما عدت بعد قصتك مع ماجدة . بعد أول بنت لوحت لك وجريت وراءها وكنت تقول انك تحبنى . الحقيقة أيضا انك لم تحبنى ولم تحبها ولم تحب أحدا . تعال . ابق أنت أيضا هنا . ربما يساعدك ذلك . ولكن لماذا اقول هذا الكلام ؟ لماذا أهتم ؟ هذا كله انتهى . أنا لم أعد أحبك .. لم أعد أحبك ..

كانت تهز رأسها يمينا ويسارا وهى تكرر ذلك ثم قالت
ــ اليوم عرفت شيئا من هؤلاء الذين يجلسون هناك . شيئا أهم منك ومنى ومن الحب . شيئا يستحق ان نتعذب من أجله . هل تعرف ما هو ؟

قلت ــ نعم .
قالت وهى تبتسم ــ اعذرنى ولكنى أشك فى ذلك . وعلى العموم فأنا لم أعد أحبك .

كنا نقف قرب ناصية شارع سليمان باشا . وكان هناك عدد كبير من الناس ، من الطلبة ومن غيرهم ، يجلسون على رصيفى الشارع أو يقفون يتناقشون . وكان يقف بالقرب منا رجل ممتلىء الجسم يلبس بذلة صيفية رمادية بنصف كم وصندلا مفتوحا . قال بصوت عال وهو يشير لنا

ـــ يا عم ! هذه ناس جاءت هنا للحب والغرام ويضحكون علينا بالكلام عن الوطنية والحرب .

سقط كلامه فى الصمت ولم يعلق أحد من الجالسين على الرصيف أو الواقفين الى جواره ، لكن فجأة ارتفع صوت البنت الصغيرة صاحبة الترموس المكسور ، اذ كانت تجذب ليلى من ثوبها وتقول لها ـــ يا ست .. يا ست .. هذا هو الرجل الذى كسر الترموس . قال لى أبوك وأبو الطلبة ...

فرفعت ليلى يدها الى جبينها تؤدى تحية هزلية وقالت له بصوت عال
ـــ مساء المخبرين !
وضحك الناس وشوح المخبر بيده وابتعد وهو يدمدم . وأمسكت ليلى البنت من كتفها وقالت لها

ـــ أنت ما زلت هنا . هذه المرة سأصعد بك بنفسى حتى باب الشقة وسأقول لستك أنا التى كسرت (الترموس) ، استرحت ؟

وعادت تمشى بسرعة وأنا الى جوارها .
قلت لها وأنا أخفض صوتى حتى لا تسمع البنت الصغيرة
ـــ فهمت كل ما قلت يا ليلى . ولكن اريد ايضا ان تتذكرى شيئا . أنا لم أخدعك أبدا ، أليس كذلك ؟ قلت لك اكثر من مرة أنى لا أستحقك .

فقالت وهى تضم البنت اليها ـــ نعم . قلتها اكثر من مرة وأنا لا ألومك ومع ذلك فلنقل الحق . ألم تكن تقول ذلك لتبقينى دائما أسيرة لك ؟ لتوحى لى بأنك تحمل هما وسرا يجعلنى خائنة ان تركتك فى محنتك ؟

ـــ لم يدر هذا ببالى أبدا . صدقينى .

فهزت رأسها وقالت ـــ لكنه ما حدث . عن اذنك .
دخلت ليلى من باب العمارة مع البنت وظللت مرة أخرى واقفا انتظر .
وفى هذه اللحظة ارتفع صوت صفير وحل بالميدان صمت ثم جاء صوت عال خشن من ميكروفون

ـــ النداء الأخير لأبنائنا الطلبة ...
الشرطة تحذركم .. خوفا من تسرب العناصر المندسة من المخربين وسط أبنائنا الطلبة فستضطر الشرطة الى التدخل لاخلاء الميدان بعد عشر دقائق من الآن ،ولن تتعرض الشرطة لمن يخرج من شارع سليمان أو من شارع القصر العينى ... النداء الأخير لأبنائنا الطلبة .

وفجأة اختلط صوت الميكروفون بصوت ابواق عربات الشرطة بصوت الطلبة الذى ارتفع وهم يغنون بلادى بلادى . وجرى البعض الى أطراف الميدان يجمعون حجارة من مشروع الكوبرى . وخرجت ليلى من باب العمارة مسرعة فأمسكت بذراعها فقالت اتركنى . اهرب أنت . لكنى مضيت معها ، وذهبنا الى وسط الميدان حيث الجميع . ورأيت سمير فضحك وهو يلوح بيده وقال بصوت مرتفع حقك علىّ . لم أقصد ان أورطك . ووجدت يدى تشتبك مع يد ليلى ومع يد طالب لا أعرفه وبدأت ليلى تغنى معهم بصوتها المبحوح بلادى بلادى . وهز الطالب الذى الى يسارى يده المرفوعة وقال لا تسكت . لا تخف غن بصوت عال . فغنيت بلادى .. أغلى درة .. مصر حرة .. يا بلادى .. عيشى حرة .. يا بلادى .

وأقبلت من كل الجهات الى الميدان سيارات نقل الجنود وسيارات صاخبة الصوت تعلوها مصابيح زرقاء دوارة وتطلق أصواتا كالصراخ المتقطع وانهمر الطوب نحو السيارات كثيرا وسريعا فتوقفت العربات ولكن بعد ان أصبح كل من فى

الميدان محصورين فى وسطه ، ثم فجأة انفجر شيء وتطلعت الأبصار ولم يتوقف الغناء ثم كان انفجار ثان وثالث وعلا دخان كثيف وعلا السعال وبحت الأصوات ورأيت حجارة تتطاير من جديد ورأيت من خلال سحب الدخان جنودا بثياب سوداء يقفون فى طرف الميدان شاهرين عصيهم وسحبت ليلى وأحطتها بذراعى واندفعت وأنا أضع يدى على أنفى محاولا ألا أتنفس الهواء اللاذع والدموع تسقط من عينى وأنا اسمع سعال ليلى ورأيت طريقا يخلو من السحاب الأبيض وقصدت اليه وأنا أجر ليلى وأعدو وهناك رأيت عصا مشهرة تريد ان تنقض على ليلى فمددت ذراعى ومددت جسمى واحتويت ليلى وكانت الأشياء الصلبة تسقط على كتفى وعلى رأسى ولكن بعيدا عن ليلى وعندما توقف سقوط الأشياء فوق عدت أسند ليلى أكاد أحملها ونحن نلهث ونحن نسعل ونحن ندمع وكنا خارج السحاب الأبيض نجلس على رصيف معا وكان هواء يمكن ان نتنفسه وكنا نفتح أفواهنا ونتلقفه وكنت أشعر برغبة قوية أن أتمدد على الرصيف ففعلت وكان آخر ما سمعت صوت ليلى وهى تقول بصوت تقطعه سعلات خشنة

ـــ هناك .. هنا .. جرح فى جبينك .. وكان آخر ما رأيت يدها تمتد لجبينى ودموعها تنهمر من عينيها وهى تطل علىّ وخديها منتفخين ككرتين وهى تسعل وتزفر ..

وكنا صغارا أنا وحسين وفريدة ومنيرة وكنا فى الطريق من بيت عمى لبيتنا ولمحت فريدة تحت شجرة صبار ثعبانا كبيرا ملتفا على نفسه وصرخت وأشارت اليه ورأيناه نحن أيضا وجرينا لكن حسين توقف عن الجرى فجأة والتقط جريدة نخل فى الطريق ورجع وكلنا نصرخ به ان يعود لكنه تقدم وقبل ان يصل الى مربض الثعبان مد الجريدة ونخسه ثم تقدم ثم رمى الجريدة وانحنى والتقط الثعبان ونحن نصرخ وهو يضحك إلى أن نادانا وقال يا خوافين . خفتم من ثوب الثعبان ؟ من جلد ميت ؟ وكان يمسك جلد الثعبان الفضى المقشور متدليا كشريط ملتوٍ وفريدة

تصرخ ابتعد يا ابن عمى . ابتعد يا حسين . صاحب الثوب يلبد جنب ثوبه . لكن منيرة صفقت بيديها وقالت أخى رجل وجرت اليه وجريت وراءها وتبعتنا فريدة ووقف حسين أمامنا يرفع الجلد الشريطى ويقول لنا وهو يضحك يا خوافين . جريتم من ثوب ميت وراح يفرك الجلد الهش المهلهل فانقضضنا عليه وتخاطفناه ورحنا نفركه ونرى الجلد الهش يتساقط من أيدينا فتاتا فضيا على الرمل الأصفر . ولكن فريدة كانت تبكى .

وعندما فتحت عينى كان وخز فى جسمى كله وروائح أدوية نفاذة كثيرة فى أنفى ولما أردت أن أرفع يدى الى رأسى وجدتها مثقلة برباط ابيض وكنت على فراش لا اعرفه وكان سمير يطل على وابتسم لما نظرت اليه وقال لا تقلق أنت بخير فقلت وأنا أحاول أن أضحك . كنت أغنى . فأشار سمير لجسمى الممدد وهو يضحك وقال ولكن ربنا ستر . ثم أشار للناحية الأخرى وحين التفتّ كانت ليلى تجلس هناك تطل على بعينيها الخضراوين وتتأملنى دون ان تبتسم ولكن لما مددت لها يدى السليمة أعطتنى يدها وكانت ناعمة ملساء فأغمضت عينى .

وكان الغناء عاليا والمغنون يتمايلون فى صحن البيت لليمين واليسار وتعلو الدفوف وتدق الدفوف هناك فى صحن البيت وعلى الدكة العالية فوق فراء الخروف كان أبى يجلس وكان يجلس شيخ طريقته . جا بيتنا فى الصباح واستحم وعبئت الزجاجات من ماء استحمامه ليتبرك بها المريدون وعندما خرج من الحمام وأبى امامه يمسك المبخرة ويطوحها فى صحن البيت ويطلق صيحات فرحة علت زغاريد النسوة المختفيات مع أمى فى حجرتها وكنت هناك لكن أمى لم تزغرد . وفى المساء كنت أقف بعيدا أشاهد الرقص والغناء والرجل ذا اللحية السوداء ينتفض واقفا فجأة ويدخل وسط حلقة الرجال ويتطوح معهم جاذبا أبى معه فيعلو الغناء ويشتد ثم يعود مكانه والعرق فى خده يتساقط من لحيته المبتلة وهو يلهث ويتمتم ويميل برأسه للخلف فتغيم عيناه ويختفى سوادهما ويهز رأسه ويصرخ بين سكتة

وآخرى فيصرخ الرجال وهم يتطوحون . ولما انتهى الغناء كنت أقف بعيدا فأشار لى أبى وابتسم وقال تعال يا ولد . قبل يد سيدنا . لكنى لم أتحرك . انتفض واقفا ليجذبنى وقال تعصى أباك يا كلب ؟ فجريت وذهبت لأمى وبكيت وقلت لها لم أقبل يده .. لم أقبل يده . فقبلت أمى جبينى وقالت لو قبلت يده ما كنت ولدى ثم قالت تعال ثم حملت مصباح الغاز وأخذتنى من يدى الى حيث أحب الى القاعة العلوية التى كانت مغلقة بالمفتاح دائما ومحرمة علينا نحن الصغار وكان فى القاعة الواسعة مقاعد كبيرة لها مساند وكنبة ضخمة وكلها مغطاة بكسوة بيضاء وفى جانب منها كان دولاب زجاجى يضم عرائس ويضم لعبا تعمل بالزمبلك وأطباقا وفناجين من الصينى عليها رسوم . فتحت أمى الدولاب وأخرجت أكواب الصينى ووضعتها على المائده بحرص بجوار بعضها وقالت المسها كما تشاء ولكن لا تكسرها . وكانت الرسوم على الأكواب مطلية وبارزة . رجال لهم شوارب مشقوقة تحت أنوفهم ويلبسون قفاطين زرقاء منقوشة بورود حمراء ينحنون للأمام يتطلعون بعيون واسعة مندهشة وهم يمسكون بأيديهم سيوفا عريضة فى المقدمة نحيلة عند المقبض فجلست أتأملها وألمس نقوشها البارزة وكانت كلها ناعمة وجميلة وكنت أحبها ..

وكانت أمى تقف هناك بقامتها الطويلة النحيلة فى ثوبها الداكن تتطلع الىّ وهى تبتسم ،،،

« انتهت »

بهاء طاهر

رقم الايداع ١٢٨ / ١٩٨٤



□ □ نحن أمام كاتب يحمل رسالة يريدها أن تصل إلى قارئه . وهو يوصلها بأكثر الأساليب فنية ، فهو يقيم توازنا بين العام والخاص ، بين الفرد والمجتمع ، بين مشكلة فى أقصى صعيد مصر وبين حالة مصر بأسرها وبين الموقف من قضية فلسطين ، بين تعرض الفرد للقهر وللإحباط وبين تعرض الواقع لها ، ثم يعرض لحركة المجتمع والأفراد معا للخلاص من هذا الإحباط .

□ □ برغم أن الكاتب من أعمق كتابنا ثقافة ، إلا إنه لا يلجأ إلى ادعاء حداثة ، فيلجأ إلى الغموض أو الإبهام أو الألغاز . كما أنه لا يلجأ إلى الافتعال أو الضبابية . وبرغم حساسية الرسالة التى تحملها الرواية وأهميتها إلّا أنها لا تلجأ إلى الإطالة أو الثرثرة بل يعتمد اسلوبها على التركيز الشديد واختيار كل كلمة . ومع ذلك فهى لا تقع فى الغموض أو التعقيد .

عبد المحسن طه بدر

دار المستقبل العربي
٤١ شارع بيروت . مصر ا-
ت / ٦٦٥٩٠٠ القاهرة

الثمــن ١٧٥ قرش